

النشاط التجاري في عدن في العهد الطاهري (858 - 923 هـ / 1451 - 1517 م)

محمد قايد حسن الوجيه

قسم التاريخ || كلية الآداب || جامعة بيشة || المملكة العربية السعودية

الملخص: يهدف البحث إلى استقصاء أهمية ودور السلاطين الطاهريين في النشاط التجاري في عدن أثناء الفترة الطاهرية، والذي كان بين عدن و التجارة الهندية والبحر الأحمر والحجاز ومصر. وقد تمكن السلاطين الطاهريين بحكم ما لديهم من خبرة تجارية وسياسية من إخضاع أخطر عنصرين معارضين للدول في ذلك الوقت (الجنود والقبائل)، بعدها مارسوا التجارة واستفادوا من أرباحها لفترة زمنية امتدت نيفاً وستين عاماً (858-923هـ/1451-1517م)، ولتحقيق هذا الهدف اعتمد الباحث على المنهج التجريبي والتاريخي للحصول على المادة العلمية المتعلقة بهذا الموضوع، وتوصل الباحث إلى جملة من النتائج أهمها: قدرة سلاطين بني طاهر بحكم خبرتهم في الجانب السياسي والاقتصادي على إخضاع القبائل والجنود لسلاطنتهم، كذلك الحفاظ على النشاط التجاري لعدن ومينائها عن طريق مرونتهم في التعامل مع سلاطين المماليك في مصر المنافسين لهم في التجارة الشرقية، واللذين توجهوا لمهاجمة عدن والقضاء على بني طاهر سنة 923هـ/1451م والسيطرة على عدن، وإخضاع اليمن لسلاطنتهم.

الكلمات المفتاحية: النشاط- التجاري-عدن- العهد- الطاهري.

أولاً: موضوع البحث وأهميته:

تتمثل الأهمية النظرية للبحث فيما سيمثله من إضافة للمكتبة العربية الإسلامية في الجانب التاريخي والاقتصادي، أما الأهمية التطبيقية للبحث فتتمثل فيما يعبر عنه من أهمية للنشاط التجاري والاقتصادي للبحر الأحمر وخليج عدن(1) ومينائها، وما يتبع ذلك من أهمية موقع الجزيرة العربية وسواحلها بالنسبة للعالم، وبالنسبة للتجارة العالمية، وخاصة التجارة الشرقية التي ربطت بين الشرق والغرب، عبر التبادل التجاري الواصل بين أرض الهند(2) الغربية والعرب باعتبارهم حلقة الوصل مع عالم البحر المتوسط وأوروبا. كما تظهر أهمية البحث في إبراز موقع مدينة عدن(3) الهام جداً في التجارة الشرقية في العصور الوسطى، حتى تحول التجار عن عدن إلى ميناء جدة(4)، الأمر الذي أضعف النشاط التجاري في عدن وإن لم ينهه تماماً.

- (1) - باب المنذب: مضيق بجوار عدن وهو الفتحة الجنوبية لمدخل البحر الأحمر، يبعد عن قرية (ذباب) من الجهة الجنوبية بمسافة 36 كم. ومن (المخا) 84 كم. (المحضي، إبراهيم أحمد، معجم المدن والقبائل اليمنية، دار الكلمة، صنعاء، طبعة 1985م، ص411).
- (2) - أرض الهند: تسمية أطلقتها المصادر التاريخية والبلدانية على البلاد الهندية، لتشمل معظم البلدان الواقعة في الشرق من شبه القارة الهندية، انظر: (القاموس السياسي، دار النهضة العربية، 1968، ص680)،
- (3) - عدن: سميت باسم من اختطها عدن بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وهي الميناء الطبيعي لليمن. (بن القاسم، يحيى بن الحسين، غاية الأمان في أخبار القطر اليماني، تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1968م، القسم الأول، ص260، هامش 4 للمحقق).
- (4) - زادت أهمية ميناء جدة منذ العهد المملوكي حيث عين سلاطين الدولة المملوكية في القاهرة نائباً لهم بمكة يرجع إليه أشرفها، كما عينوا نائباً لهم في جدة سبي نائب جدة، كان من مهامه الإشراف على ميناء جدة، وحصار العوائد المادية من عشور التجارة، ثم إرسالها إلى القاهرة. (الجزيري، عبد القادر محمد، درر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، المطبعة السلفية، القاهرة، 1384هـ، ص283).

وتظهر أهمية البحث في إظهار دور سلاطين بني طاهر في المحافظة على النشاط التجاري لعدن، فدخلوا في علاقة حسنة مع المماليك في مصر ونوابهم في الحجاز، فاستمر نشاط عدن التجاري حتى ما بعد ظهور البرتغاليين في المياه الشرقية.

تظهر أهمية البحث من خلال محاولة معرفة أسباب الصراع التجاري بين سلاطين الطاهرين في اليمن والمماليك في مصر، الذين حاولوا غير أن اتهام بني طاهر بعدم المصادقية في مواجهة البرتغال التي منعت التجارة عبر البحر الأحمر، فخسر ممالك مصر دخلهم من التجارة الشرقية، ومن ثم توجهوا بجيوشهم لمهاجمة الطاهرين والقضاء عليهم في عدن وبقية مناطق اليمن.

ثانياً: مشكلة البحث:

حاول البحث الإجابة على التساؤل الرئيس التالي: كيف يمكن تتبع النشاط الاقتصادي لعدن طوال فترة البحث قوة وضعفاً؟ ومدى تأثيره وتأثيره على الداخل الطاهري؟ وكذلك على المحيط الاقليمي أو الدولي؟ مع مراعات ظروف ومقتضيات تجارة ذلك العصر، وما طبيعة النشاط التجاري لعدن وميناءها في العصر الطاهري؟ ومنه تفرعت التساؤلات التالية:

1. ما الأسباب التي أدت إلى ضعف النشاط التجاري في أواخر سلاطين بني رسول؟
2. كيف استطاع سلاطين بني طاهر التمكين لدولتهم الناشئة على أنقاض دولة بني رسول؟ وكيف طوعوا أهم عنصرين معارضين لأي دولة في ذلك الوقت (الجند- القبائل)؟
3. ما الطرق التي اتبعها سلاطين بني طاهر لاستمرار النشاط التجاري لعدن وميناءها لما يزيد عن (65) عاماً.
4. كيف أثر الموقع الحيوي لعدن وميناءها في ارتفاع دخل السلاطين؟ وما مقدار ما حصل عليه السلاطين الطاهرين من تجارة عدن وميناءها؟ وهل يمكن أن نعقد مقارنة بين دخل الميناء في العصرين الرسولي والطاهري؟
5. كيف ظهر التنافس التجاري في المياه الشرقية بين سلاطين بني طاهر وسلاطين المماليك في مصر؟ وما الذي فجر الصراع بينهما؟ وما مدى تأثير تحول التجارة من ميناء عدن إلى ميناء جدة على السلاطين الطاهرين؟ وما أبرز العوامل الداخلية والخارجية التي أثرت على النشاط التجاري لعدن وميناءها؟ وهل لذلك علاقة بسقوط الدولة الطاهرية في اليمن ومن ثم النشاط التجاري لعدن في العصر الطاهري؟

ثالثاً: أهداف البحث:

يهدف البحث إلى:

1. إبراز أهمية موقع عدن وميناءها في الجانب التجاري والاقتصادي على المستوى المحلي والإقليمي والدولي، وما قام به من دور في النشاط التجاري من خلال وصف الرحالة والمؤرخين.
2. عرض للعلاقة بين استقرار السلاطين الرسولين وقوة العائدات المالية من النشاط التجاري لعدن وميناءها، واضطراب الوضع الداخلي بأبعاده الثلاثة (تنزع السلاطين الرسولين وثورات الجند وخروج القبائل) وبين ضعف العائدات التجارية لعدن وميناءها.
3. تتبع مراحل ضعف النشاط التجاري لعدن وميناءها، خاصة بعد تحول التجار إلى ميناء جدة، وكيف عمل سلاطين بني طاهر على الحفاظ على استقرار النشاط التجاري في عدن، مع تنازلهم عن الإشراف على التجارة الشرقية لسلاطين المماليك في مصر.
4. تحليل الأخطار الداخلية والخارجية التي قضت على الوجود الطاهري في اليمن وعلى النشاط التجاري في عدن.

رابعاً: حدود البحث:

- حدود البحث المكانية: عدن وميناءها من أواخر عهد السلاطين الرسوليين حتى عهد الدولة الطاهرية وسلاطينها، مع توضيح أوجه العلاقة التجارية مع المحيطين بهم؛ الهند، البحر الأحمر، الحجاز، مصر، مع محاولة الاقتصاد على العلاقات التجارية وفق إمكانات ذلك العصر.
- حدود البحث الزمانية: خلال الفترة الزمنية التي حكم فيها سلاطين بني رسول (858-923هـ/1451-1517م)، مع بعض الإشارات السابقة لها، خاصة في أواخر عهد سلاطين بني رسول والتي اقتضى البحث الإشارة إليها.

خامساً: صعوبات البحث:

لعل أبرز الصعوبات التي واجهت البحث تتبع النشاط التجاري قوة وضعفاً في فترة زمنية امتدت من 858-1451م حتى 923هـ-1517م، وذلك أمر في غاية الصعوبة، حيث إن العوامل الداخلية أو الخارجية التي أضعفت بني رسول أولاً أو بني طاهر فيما بعد لم تكن لتظهر بين ليلة وضحاها، بل إن التأثير السلبي أو الإيجابي كان يأخذ وقته الطبيعي التسلسلي الذي يؤثر في جسم الدولة بشكل عام، لكنه يسير بشكل بطيء، ولذلك دائماً ما يقال في علم الاجتماع السياسي إن أثر القرارات السياسية تكون ظاهرة للعيان بشكل مباشر، لكن التأثيرات الاقتصادية غالباً ما تسير وفق خطى متدرجة سواءً للأعلى أو للأسفل.

كما أن صعوبة تتبع الخارجين على سلاطين بني طاهر من جند أو قبائل في بداية حكمهم جعلت البحث يأخذ ما يهيم النشاط التجاري فقط، خوفاً من خروجه عن أهدافه ومساره التجاري، كما أن صعوبة معرفة الأساليب التي اتخذها سلاطين بني طاهر لتجنب الصراع الداخلي ومنع أي خروج على الدولة وإن كان البحث قد ركز على وسيلتين مهمتين: الأولى: تجنب الصراع الداخلي داخل الأسرة الطاهرية، ولذلك حكم اثنان من السلاطين الطاهرين في وقت واحد وبانسجام فلكل واحد مهامه الموكلة إليه دون تداخل أو صراع، الثانية: تطويع المال في شراء قادة الجند وشيوخ القبائل وإن لم فالقوة هي الحل الأمثل، مما جعل الجميع يدين لهم بالطاعة، ومن ثم كان استمرار النشاط التجاري لعدن في ظل الأمن الوارف والحقوق المكفولة؛ مما جعل التجار يسرون مراكبهم دون خوف إلا من الرياح.

ومن الصعوبات التي حاول البحث إيجاد تفسير لها: قيام سلاطين بني طاهر بالتنازل عن الإشراف على التجارة الشرقية، وسلموها عن طواعية لسلاطين المماليك في مصر، ورضوا بما سيحصلون عليه من عوائد تجارية مشتركة معهم، فراسلوهم بالهدايا والمجاملات، كما حاول البحث تفسير توتر العلاقات بين الطرفين؛ الطاهري في اليمن والأيوبي في مصر بعد ظهور البرتغاليين في المياه الإسلامية الشرقية، والذي كان أحد المبررات لسلاطين مصر بالتوجه للقضاء على بني طاهر في عدن وبقية اليمن بحجة عدم جديتهم في جهاد البرتغال.

سادساً: منهج البحث:

يعتمد البحث على المنهج التحليلي حيث يقوم بعرض وتحليل المصادر المختلفة عن النشاط التجاري لعدن وميناءها في عصر الدولة الطاهرية قوةً وضعفاً، وعلاقتها بالقوى الإقليمية والدولية، وما نجم عن تلك العلاقات من نتائج، مع الخروج قليلاً على تاريخ البحث في بعض الإشارات التي تخدم أهدافه، خاصة في الحديث عن المشاكل والثورات التي هزت البلاط الرسولي مما أثار على العائدات التجارية لعدن وميناءها.

سابعاً: الدراسات السابقة:

رغم وجود العديد من الدراسات التي تناولت النشاط التجاري لعدن وميناءها في العصر الأيوبي والرسولي، ومن أبرزها:

- الكامل، محمد أحمد، معالم ومظاهر حركة النشاط التجاري في عدن خلال عهد السلطان المظفر الرسولي، ندوة عدن بوابة اليمن الحضارية، جامعة عدن، 18-19 يناير، 2011م، صفحات(317-332)،. والتي عرض الباحث فيه معالم ومظاهر حركة النشاط التجاري في عدن في عهد ثاني حكام دولة بني رسول في اليمن السلطان المظفر يوسف بن عمر بن رسول في الفترة الزمنية 647-694هـ/1250-1295م، الذي شهدت في عهده حركة التجارة في عدن نشاطاً ملحوظاً، وحاول الباحث خلال ذلك إظهار القوائم والجهات التجارية وجوانب من مظاهر وقواعد وتنظيمات الحركة والتعامل التجاري في عدن وميناءها، ولم يذكر الباحث الدراسات السابقة له، ولا المشكلات التي واجهها، ولا نتائج وتوصيات البحث.
 - السروري، محمد عبده، أهمية موقع عدن في النشاط التجاري البحري الدولي في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، ندوة عدن بوابة اليمن الحضارية، جامعة عدن، 18-19 يناير، 2011م، صفحات (357-388)، حاول الباحث عرض العلاقة التجارية بين عدن وبين العديد من بلدان العالم في فترة البحث ومنها: الهند وإندونيسيا، وماليزيا والسند وفارس والخليج وعمان، والعراق وجنوب شرق أفريقيا، والحجاز ومصر والحبشة، وبين في خاتمة البحث أهمية موقع عدن الجغرافي للنشاط التجاري البحري الدولي في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، دون أن يذكر الدراسات السابقة لبحثه، أو المشكلات التي واجهها، ولا نتائج وتوصيات البحث.
- إن مما يميز البحث عما سبقه من دراسات تناوله للنشاط التجاري لعدن في العصر الطاهري، من بداية الضعف التجاري في أواخر العصر الرسولي حتى نهاية العهد الطاهري.

ثامناً: تقسيم البحث: شمل البحث:

1. أهمية موقع عدن ونشاطها التجاري.
2. سلاطين بني رسول ودورهم في النشاط التجاري في عدن قوة وضعفاً.
3. النشاط التجاري في عدن في عهد الدولة الطاهرية.
4. نهاية النشاط التجاري في عدن في العهد الطاهري وعوامل ذلك.

1. أهمية موقع عدن ونشاطها التجاري:

1-1 موقع عدن ومينائها:

تقع عدن على الساحل الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية، على خليج عدن، جنوب شرق باب المندب(5)، في شبه جزيرة صخرية بيضوية الشكل، يربطها ساحل اليمن الجنوبي بالبر برزخ رملي أشبه بالعنق(6)، ولشدة موقعها الحصين تحيط بها الجبال من ثلاث جهات، فأصبحت من جهة البر من أمنع البلاد وأحصنها(7)، وبها صهاريج يجتمع بها الماء أيام المطر(8)، وقد تم التحكم بالدخول إليها عن طريق البر، بباب من الحديد عبر الجبل

(5) - باب المندب: مضيق باب المندب يفصل اليمن عن القارة الأفريقية كجيبوتي وأثيوبيا والصومال. انظر:

D.K.Daeg de Mott, YEMENIS_ Worldmark Encyclopedia of Cultures And Daily Life, Asia and Oceania,Drtrout,Now York, Toronto,London, Volume 3,1997.P.830.

(6) - شهاب، حسن صالح، عدن فرضة اليمن، مركز الشرعي، صنعاء، 2000م، ص 17.

(7) - ابن الأثير، أبي الحسن علي بن محمد، الكامل في التاريخ، دارالكتب العلمية، بيروت، الطبعة الرابعة، 2006م، ج10.

(8) - ابن بطوطة، محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي، تحفة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المعروفة برحلة ابن بطوطة، دار صادر، بيروت، دت، ص 251.

المحيط بها⁽⁹⁾، لذلك تميزت عدن بأنها حلقة وصل تجاري يربط بين موانئ بلدان المشرق والمغرب⁽¹⁰⁾، فيها "متاع السند والهند والصين والزنج والحبشة وفارس والبصرة وجدة والقلم" ⁽¹¹⁾، وخزانة المغرب ومعدن التجارات⁽¹²⁾، وهناك العديد من العوامل التي جعلت من عدن في العصور الوسطى المتجر للتجارة مع الهند وبوابة الصين ومخزن الشرق منها: أنها تقع في منتصف الطريق بين القاهرة والهند، وانتظام الرياح الموسمية التي ساعدت على جعل طريق الشحن بالسفن ثابت في السنة، الأمر الذي جعل السفن التجارية تلتزم هذا الطريق كطريق مؤسس مما أعطى عدن ميزة خاصة في ذلك الوقت.⁽¹³⁾

هذا الموقع المتميز أهلَ عدن لتصبح محطة تجارية للسفن المارة بسواحل خليج عدن، كمركز تجاري يربط بين البحر المتوسط والشرق الأقصى، حيث تُنقل منها السلع التجارية عبر البحر الأحمر إلى الحجاز ثم مصر فكثيراً من السلع التجارية يتم شراؤها من عدن بقصد نقلها إلى الاسكندرية⁽¹⁴⁾، ثم إلى المتوسط وصولاً إلى أوروبا⁽¹⁵⁾، يقول المقدسي عن أهمية موقع عدن التجاري: "...عدن بلد جليل عامر أهل حصين دهليز الصين وفرضة⁽¹⁶⁾ اليمن، وخزانة المغرب ومعدن التجارة"⁽¹⁷⁾.

فعدن "مدينة مشهورة... مرفأً مراكب الهند... فإنها بلد تجارة"⁽¹⁸⁾، "مرسى البحريين ومنها مراكب السند والهند والصين"⁽¹⁹⁾، بل تلجأ إلى ميناء عدن جميع السفن التجارية⁽²⁰⁾، فهي جاذبة للتجار حتى أن المقيم بها لا يفكر

-
- (9) - القزويني، زكريا محمد محمود، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، د.ت، ص 101.
- (10) - السروري، محمد عبده، أهمية موقع عدن في النشاط التجاري البحري الدولي في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، ندوة عدن بوابة اليمن الحضارية، جامعة عدن، 18-19 يناير، 2011م، صفحات (357-388)، ص 376.
- (11) - ابن خردابة، عبد الله بن عبد الله، المسالك والممالك، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1988م، ص 57.
- (12) - المقدسي، محمد بن أبي بكر، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة ليدن، بريل، 1906م، ص 84.
- (13) - Werner Daum, From Adan to India and Cairo Jewish World in the 11 th and 12 th Centuries, Yemen 3000 Years of Art and Civilisation in Arabia Felix, at The Staatliches Museum für Völkerkunde München (25 April 1987 to 5 April 1988), published by Pinguin-verlag, Innsbruck Umschau-Verlag, Frankfurt/main, PP.167-173.
- (14) - ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ترجمة: عبد العزيز جاويد، الهيئة المصرية العامة لكتاب، القاهرة، 1996م، ص 91.
- (15) - القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب العلمية، بيروت، 1407هـ/1987م، ج3، ص 468.
- (16) - الفرضة: هي محد إرساء السفن على البحر، (الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح، ترتيب: محمود خاصر، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، 2003، مادة فرض، وهي المكان الذي كان يتم فيه فحص البضائع الواردة وتقدير العشور عليها. بامخرمة، أبو محمد الطيب بن عبد الله، تاريخ ثغر عدن، تحقيق: أوسكر لوفجرين، دار التنوير، بيروت، الطبعة الأولى، 1986م، ص 14.
- (17) - المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 85.
- (18) - ياقوت، شهاب الدين أبو عبد الله، معجم البلدان، تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ج4، ص 89.
- (19) - الإدريسي، محمد عبد العزيز، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مؤسسة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت، ج1، ص 54.
- (20) - رحلات ماركو بولو، ص 91.

في سوء المقام لكثرة الأموال النامية بها⁽²¹⁾، فربما يكون لأحد تجار عدن المركب العظيم بجميع ما فيه لا يشاركه فيه غيره لسعة ما بين يديه من الأموال⁽²²⁾.

2-1 الأهمية التجارية لعدن ومينائها:

تميز النشاط التجاري في عدن وفق وصف الرحالة والمؤرخون، بالنشاط وكثرة الدخل أكثر من أي مكان آخر، فبلدها "مبارك على من دخله مثير لمن سكنه، مساجد حسان، ومعايش واسعة، وأخلاق طاهرة، ونعم ظاهرة..."⁽²³⁾، فهناك من ذهبَ بألف درهم فرجع بألف دينار، وأخر دخل بمائة فرجع بخمسمائة⁽²⁴⁾، فالمكاسب وافرة والتجارة مربحة⁽²⁵⁾، فقد "كان يزُومى في كل عام تحت جبل صيرة سبعون ثمانون مركباً زائد ناقص"⁽²⁶⁾.

2 سلاطين بني رسول ودورهم في النشاط التجاري في عدن قوة وضعفاً:

1-2 بني رسول ودورهم في تنمية النشاط التجاري في عدن:

عمل سلاطين بني رسول الأقوياء⁽²⁷⁾ في عدن على اتخاذ سياسة جمركية جديدة تقوم على إسقاط العشور عن بعض السلع التموينية الهامة كالرز والسمسم وبعض الصناعات الجلدية إضافة إلى بعض السلع الضرورية كالأخشاب⁽²⁸⁾، كما عملوا على تشجيع استيراد الخيول والحدّ من تصديرها، نستنتج ذلك من خلال ارتفاع ضريبة تصدير الخيول اليمنية، فضريبة تصدير الخيل الواحدة بلغت سبعون ديناراً، بينما استيراده بخمسون ديناراً فقط⁽²⁹⁾، كما قام السلاطين بمنح الخلع والتشريف والهدايا للتجار القادمين في الموسم التجاري مبكراً، بل وصل الحال إلى إعفائهم من طرح الفوة⁽³⁰⁾، وبالمقابل يتم تشريف ربابنة السفن المتأخرين في المغادرة⁽³¹⁾، وفي كل ذلك نوع من الترغيب والتشجيع لاستمرار المواسم التجارية.

(21) - العمري، ابن فضل الله، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، (القسم الخاص بمملكة اليمن)، قدم له: أيمن فؤاد سيد، دار الاعتماد، القاهرة، 1987م، ص157.

(22) - ابن بطوطة، تحفة النظائر، ص260.

(23) - المقدسي، أحسن التقاسيم، ص84.

(24) - المقدسي، أحسن التقاسيم، ص84، زكي، محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2013، ص13.

(25) - العمري، المسالك، ص157.

(26) - ابن الجوار، يوسف محمد الشيباني، صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماة تاريخ المستبصر، راجعه: ممدوح حسن محمد، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة 1996م، القسم الأول، ص130.

(27) - حكم الدولة الرسولية أربعة عشر سلطاناً منذ نشوؤها في عهد المؤسس السلطان المنصور عمر بن علي بن رسول سنة626هـ/1229م، وحتى عهد السلطان الثامن الناصر أحمد بن الأشرف إسماعيل الذي توفي سنة827هـ/1400م، حيث مثل هؤلاء مرحلة القوة والاستقرار في عهد الدولة الرسولية، وهم 2- المظفر يوسف بن عمر، الثالث: الأشرف عمر بن المظفر، الرابع: المؤيد داود بن المظفر، الخامس: المجاهد علي بن المؤيد، السادس: الأفضل العباس بن المجاهد، السابع: الأشرف إسماعيل الأول.

(28) - ابن الجوار، ص305، أيضاً انظر: نور المعارف في نظم وقوانين وأعراف اليمن في العهد المظفري الوارف، تحقيق: محمد عبد الرحيم جازم، المعهد الفرنسي للأثار الاجتماعية، صنعاء، الطبعة الأولى، 2003م، ج1، ص415، 500.

(29) - نور المعارف، ج1، ص419.

(30) - الفوة: عروق نبات لوئها أحمر يستعملها الصباغون وتعرف بفوة الصباغين، طعمها مرّ، ولها استعمالات طبية كثيرة. الملك المظفر يوسف عمر بن رسول، المعتمد في الأدوية المفردة، تحقيق: مصطفى السقاء، دار القلم، 1421هـ/2000م، ص292، 293، وكانت الدولة تفرض على التجار شراء كميات محددة من الفوة التي تزرع في الأملاك التابعة للدولة. (نور المعارف، ج1، ص499-500).

غير أن تحديد الرسوم الجمركية في ميناء عدن قد حددت بدقة، وتطورت عبر مراحل عدة في حياة السلاطين الرسولين، خاصة في مرحلة القوة والانتعاش، ففي عهد السلطان المظفر الرسولي⁽³²⁾ ظهرت أجرة التسفير أو التسفير⁽³³⁾، وهي تمثل أجرة نقل البضائع داخلياً أو خارجياً وفق ما يتم الاتفاق عليه سواءً نقل الجمال والدواب مع علوفاتها، أو المراكب، وحسب نوع البضاعة والمسافات والمراحل المقطوعة⁽³⁴⁾، ومن الأمور الهامة التي ظهرت في ميناء عدن مراعات الرسوم الجمركية عند تحديد أسعار بعض السلع لاعتبارات عدة منها: حالة الأسعار بحسب الواقع وظروف المكان والزمان وفارق الأسعار جملة أو تفريق مع مراعات مصلحة المستهلك والتاجر معاً، وإن لزم الأمر دفع الفوارق من خزينة الديوان السعيد.⁽³⁵⁾

كل ذلك من أجل تنظيم الحركة التجارية والسلع الاستهلاكية، وغير الاستهلاكية بتحديد قوائم لهذه السلع وتحديد مقاديرها وأنواع رسومها حسب حجمها أو قياسها وجودتها وسعرها وطريقة نقلها وجهتها التجارية، وما إذا كانت صادرة أم واردة⁽³⁶⁾، فقد ورد في سجل نور المعارف تسميات مختلفة منها (خراج- ضرائب- مكوس- واجب- ارتفاع)، ومن تسميات الرسوم (العشور- رسوم الدلالة- رسوم الشواني- رسوم حمالة بعض السلع- رسوم المصانعة والهدية).⁽³⁷⁾

2-2 الخلافات الداخلية الرسولية ودورها في ضعف النشاط التجاري في عدن:

كل ما آلت إليه دولة بني رسول من ضعف لم يكن سببه سياسياً فقط، بل أن العامل الاقتصادي كان حاضراً وبقوة، فقد أنفق بني رسول كثيراً من الأموال لإخماد تلك الثورات الداخلية، ولا شك أن الكثير منها كان يستنفد من عائدات عدن ومينائها من رسوم جمركية الشيء الكثير، مما أثر على عدن ونشاطها التجاري باعتباره المورد الرئيسي لبني رسول، فقلَّ إنفاقهم على جندهم الذين لم يعدوا يوالون السلطان الرسولي، وثاروا عليه في مناطق عدة من اليمن.

استمرار الازدهار التجاري لميناء عدن حتى بدأ يظهر الخلاف بين السلاطين الرسولين من جهة وبينهم وبين القوى القبلية اليمنية من جهة أخرى، مما أثر بدوره على الاستقرار السياسي والاقتصادي والتجاري معاً، ولعل هذا الضعف قد بدأ من عهد السلطان المنصور عبد الله⁽³⁸⁾ الذي كان صغير السن فأدار الحكم له جماعة من أعيان

(31) - نور المعارف، ج1، ص506.

(32) - هو السلطان المظفر يوسف بن عمر الرسولي، ثاني حكام الدولة الرسولية، حكم خلال الفترة (647-694هـ/1249-1295م).

(33) - نور المعارف، ج1، ص72، 111، 175-176.

(34) - نور المعارف، ج1، ص59، 61، 110، 184.

(35) - نور المعارف، ج1، ص129، 134، 177، 366.

(36) - الكامل، محمد أحمد، معالم ومظاهر حركة النشاط التجاري في عدن خلال عهد السلطان المظفر الرسولي، ندوة عدن بوابة اليمن الحضارية، جامعة عدن، 18-19 يناير، 2011م، صفحات(317-332)، ص324

(37) - الكامل، معالم ومظاهر، ص324، والشواني جمع شونة، وهي مراكب سفارية تحمل المؤن والزراد وبها مخازن للغلال والطعام وصهاريج للماء، وهي من أهم السفن الحربية التي عرفتها البحرية الإسلامية في العصور الوسطى، حيث تزود بأبراج وقلاع وعشرات المجاديف وتحمل الواحدة حوالي مائة وخمسين جندياً مع أسلحتهم، تستخدم غالباً لحماية السفن والمراكب التجارية من قراصنة ولصوص البحار. انظر: الكامل، معالم ومظاهر، ص328، هامش12.

(38) - هو السلطان عبد الله بن الناصر أحمد، تاسع سلاطين الدولة الرسولية، حكم خلال الفترة (827-830هـ/1424-1427م)، ومن عهده بدأت فترة ضعف الدولة الرسولية، وهو أول السلاطين الضعاف.

الدولة⁽³⁹⁾، غير أن الخلاف سرعان ما دبّ بينهم مما شجع القبائل بالخروج على الدولة والسلب والنهب، إضافة لمحنة القحط والجذب⁽⁴⁰⁾، بل تم خلع السلطان ونهب قصره سنة 831هـ/1428م. (41)
 لما تولى السلطان الظاهر⁽⁴²⁾ السلطنة نكّل بأنصار سلفه قتلاً وتشريداً⁽⁴³⁾، إلا أن ذلك لم يجلب له الاستقرار، فقد خرجت عليه القبائل ومنها قبيلة القرشيين⁽⁴⁴⁾ التي أعلنت العصيان، مما زاد من الفتن والاضطرابات⁽⁴⁵⁾، واستمر ذلك حتى وفاة السلطان الظاهر سنة 842هـ/1439م.⁽⁴⁶⁾
 حاول السلطان الأشرف الرابع إسماعيل ابن الظاهر⁽⁴⁷⁾ اتخاذ حلاً عسكرياً لثورة القبائل ولو اتسم بالشدة والقسوة وبنقض العهد والميثاق، فقد دعا زعماء القبائل التي هزمت جيشه أكثر من مره⁽⁴⁸⁾، إلى وليمة قرب زبيد⁽⁴⁹⁾ بقصد الحوار معهم، لكنه ضرب أعناقهم في تلك الولاية⁽⁵⁰⁾، ومع ذلك فلم ينعم بالهدوء واستمرت ثورات القبائل بلا هوادة حتى وفاته.⁽⁵¹⁾

رغم ظهور محنة السلاطين الرسولييين الداخلية في نزاعهم على السلطنة، وعصيان القبائل المتكررة عليهم، ظهرت محنة ثالثة عجلت بنهاية الدولة الرسولية تمثلت في بروز قوة مماليك الرسولييين وهم غالبية جندهم، فتمردوا على قرارات السلاطين، حيث خلعوا السلطان الناصر أحمد⁽⁵²⁾ وأخرجوه من زبيد⁽⁵³⁾، ورفضوا طاعة السلطان المظفر

(39) - الخزرجي، أبو الحسن على بن الحسن، المسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، القاهرة، رقم 736 تاريخ، ورقة 588.

(40) - ابن الديبع، عبد الرحمن بن علي الشيباني، قرة العيون في أخبار اليمن الميمون، تحقيق: محمد بن علي الأكوغ، المطبعة السلفية، القاهرة، 1374هـ، ص 112.

(41) - الخزرجي، المسجد، ص 588.

(42) - هو السلطان الظاهري بن الأشرف إسماعيل الأول، السلطان الحادي عشر من سلاطين الدولة الرسولية، حكم خلال الفترة (831-842هـ/1428-1438م).

(43) - ابن القاسم، غاية الأمان، ص 567-568.

(44) - القرشيين: هم إحدى قبائل الأشاعر في تهامة اليمن، خرجوا على الدولة الرسولية والظاهرية فيما بعد وذلك لنزعهم البدوية للاستقلال وعد الخضوع للدولة، وجهت لهم الدولة الرسولية والظاهرية أكثر من حملة، غير أن ثوراتهم استمرت كلما ضعفت الدولة، ويميلون للسكون والطاعة كلما كانت قوية شأنهم شأن القبائل القوية في اليمن بشكل عام. (عبد العال، محمد أحمد، بنو رسول وبنو ظاهروعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما، 628-923هـ/1231-1517م، دار المعرفة، الاسكندرية، 1989م، ص 293).

(45) - الخزرجي، المسجد، ص 592.

(46) - الخزرجي، المسجد، ص 592.

(47) - هو الأشرف الرابع إسماعيل بن الظاهري، السلطان الثاني عشر بين سلاطين الدولة الرسولية، حكم خلال الفترة (850-858هـ/1446-1454م).

(48) - ابن القاسم، غاية الأمان، ص 579.

(49) - زبيد: مدينة مشهورة في تهامة اليمن، سميت باسم زبيد نسبةً إلى وادي زبيد، وكانت قديماً تسمى بالحصيب، بها آثار إسلامية عريقة من مساجد ومدارس، وغيرها، وتبعد عن صنعاء بحوالي 200 كم. (الأكوغ، إسماعيل بن علي، البلدان اليمانية عند ياقوت الحموي، دار الجيل الجديد، صنعاء، ط 2، 1988م، ص 138). العبادي، عبد الله قائد، الحياة العلمية في مدينة زبيد في عهد الدولة الرسولية، 626-858هـ/1228-1454م، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القرى، 1416هـ/1995م، ص 43-44.

(50) - الخزرجي، المسجد، ص 594.

(51) - الخزرجي، المسجد، ص 594.

(52) - هو السلطان الناصر أحمد بن الأشرف إسماعيل الأول، وهو ثامن سلاطين بني رسول، ويعد آخر السلاطين الأقبوياء، حكم خلال السنوات (803-827هـ/1400-1424م).

(53) - بامخرمة، قلادة النحر، ج3، ص 1110، الخزرجي، المسجد، ص 596.

الثاني⁽⁵⁴⁾ سنة 847هـ/1443م بإعلانهم سلطاناً جديداً للدولة هو المسعود⁽⁵⁵⁾، 847هـ/1443م في زبيد، ولم يكن تجاوز الثالثة عشر من عمره، مما جعلهم يديرون أمور الدولة باسمه، بل وسيطروا باسمه على عدن في نفس العام⁽⁵⁶⁾، وفي العام التالي 848هـ/1444م مدّوا نفوذهم باسمه على لحج⁽⁵⁷⁾، ثم غدروا به وعينوا سلطاناً آخر هو المؤيد حسين سنة 855هـ/1451م⁽⁵⁸⁾، مما دفع السلطان المسعود للخروج إلى تعز⁽⁵⁹⁾ ثم إلى عدن⁽⁶⁰⁾.

ساند بنو طاهر سلاطين بني رسول المتأخرين ضد الثورات التي قامت ضدهم، فقد ساندوا السلطان المظفر ضد الخارجين عليه⁽⁶¹⁾، غير أن بني طاهر كانوا يظهرون الولاء لبني رسول وسلاطينهم، ويخططون في نفس الوقت لوراثةهم بعد أن كثرت خلافهم وضعفهم وعدم ولاء الجند لهم، وكثرت الطامعين على عرش السلطنة⁽⁶²⁾، خاصة مماليك الدولة الذين أصبحوا يشكلون أكثر العناصر خطراً على الدولة بكثرة ثوراتهم وعزلهم السلاطين وتولية غيرهم، حتى أدى ذلك إلى جانب عوامل أخرى إلى سقوط دولة بني رسول بعد حكم دام مائتين وثلاثين عاماً

3 النشاط التجاري في عدن في عهد الدولة الطاهرية:

1-3 مدخل: النشأة التجارية لأسرة بني طاهر قبل قيام دولتهم:

أسرة بني طاهر أسرة اشتغلت بالتجارة واحترفتها⁽⁶³⁾، بل أن بني طاهر أصبحوا أمناء سلاطين بني رسول - قبل سقوطهم- على التجارة ووكلاء عنهم في عدن⁽⁶⁴⁾، وزادت الصلات بين الطرفين بزواج السلطان الرسولي الظاهر يحيى بن الأشرف بابنة الشيخ طاهر بن معوضة⁽⁶⁵⁾ سنة 835هـ/1432م⁽⁶⁶⁾، مما زاد من نفوذ بني طاهر في أواخر دولة بني رسول.

(54) - هو السلطان المظفر الثاني يوسف بن عمر بن إسماعيل الأول، وهو السلطان الثالث عشر، حكم خلال السنوات 845-847هـ/1441-1443م، ولم يحكم بعده سوى سلطان واحد هو المسعود أبو القاسم بن إسماعيل الثاني.

(55) - السلطان المسعود أبو القاسم بن إسماعيل الثاني، يعد آخر حكام سلاطين بني رسول، حكم خلال السنوات (847-858هـ/1443-1454م)، حيث سقطت الدولة الرسولية في آخر عهده على يد أسرة بني طاهر التي ستحكم بعد بني رسول.

(56) - بامخرمة، قلادة النحر، ج3، ص1114.

(57) - الخزرجي، المسجد، ص597. لحج: مخلاف من مخاليف اليمن مترامي الأطراف، يمتد غرباً إلى باب المنذب، وشرقاً إلى يافع، وجنوباً حتى ساحل عدن، وشمالاً حتى الضالع. (ابن الديبع، عبد الرحمن بن علي الشيباني قرّة العيون بأخبار اليمن الميمون، تحقيق: محمد بن علي الأكوغ، المكتبة اليمنية الحوالية، الطبعة الثانية، 1988م، ص138، هامش2، للمحقق).

(58) - الخزرجي، المسجد، ص579.

(59) - تعز: فتح أوله وكسر ثانيه، مدينة مشهورة تقع في سفح جبل صبر الشمالي، وكانت تعرف قديماً بالعدينة، ثم غلب عليها اسم تعز، زادت شهرتها عندما أصبحت عاصمة للدولة الرسولية، حيث تميزت في العهد الرسولي بالازدهار العلمي والحضاري، وهي تزخر بعشرات المواقع الأثرية والتاريخية، وتبعد عن صنعاء 245 كم جنوباً. (علي، علي حسين: الحياة العلمية في مدينة تعز وأعمالها في عصر بني رسول، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القرى، 1414هـ/1994م، ص21-25).

(60) - الخزرجي، المسجد، ص579، ابن القاسم، غاية الأمان، ص584.

(61) - انظر: ابن الديبع، قرّة العيون، ص117.

(62) - الكبسي، محمد بن إسماعيل، اللطائف السنوية في أخبار الممالك اليمنية، الجيل الجيد، صنعاء، الطبعة الأولى، 2005م، ص168-169.

(63) - بامخرمة، ثغر عدن، ص187.

(64) - الخزرجي، المسجد، ص585.

(65) - هو طاهر بن معوضة بن تاج الدين بن محمد بن سعيد بن عامر. (عبد العال، بنو رسول وبنو طاهر، ص248، 249).

(66) - الخزرجي، المسجد، ص589.

تمتعت أسرة بني طاهر بالقدرة التجارية منذ أواخر عهد الدولة الرسولية، فقد مارست التجارة والنشاط التجاري داخل اليمن وخارجه، فاستطاعت جني الأموال الطائلة، حيث مارست تجارتها مع البلاد الهندية من عدن، وبالتالي تمكنوا من تجاوز الوسطاء التجاريين، ومارسوا التجارة بأنفسهم مما أكسبهم خبرة تجارية كبيرة، ولعل ما ساعدهم على ذلك جمعهم لوظيفتي التاجر والجابي في وقت واحد، مستفيدين من حسن علاقتهم بالسلطين الرسوليين، والتجار ثلاثة أصناف: الخزان الذي يشتري البضائع من أصحابها بصورة مباشرة ويخزنها في أماكن خاصة إلى أن يبيعها على الصنف الثاني من التجار وهو (الركاض)، الذي يقوم بعملية شراء البضائع من الأسواق التي تتوافر فيها ونقلها إلى أسواق أخرى تطلب هذه البضائع، فيبيعها إلى الصنف الثالث وهو (المجهز) الذي يستقبل البضائع المستوردة وبيعها في السوق⁽⁶⁷⁾، ويبدو أن أسرة بني طاهر قد مارست الأصناف الثلاثة في التجارة في عدن، حيث استطاعوا السيطرة على بعض السلع التجارية وأزاحوا التجار المنافسين لهم، مما أثار مخاوف هؤلاء التجار في عدن من هذا الصعود اللافت لبني طاهر، خاصة تجار القوة - كما سبق - الذين قدّموا شكوى للسلطان الرسولي ومما ذكره في شكواهم خوفهم من تحويل بني طاهر لمدينة عدن إلى "زريبة للفوة"⁽⁶⁸⁾ حيث كان هؤلاء التجار قد "نشأوا على التكسب والتجارة وعرفوا فيها (عدن) من المصالح فلا يتركوا ذلك"⁽⁶⁹⁾، وقد تحققت هذه المخاوف بالفعل، حيث استقرّ بنو طاهر في عدن للإشراف بأنفسهم على تجارتهم وطال بهم المقام⁽⁷⁰⁾، رغم أن استقرارهم كان في المقرانه⁽⁷¹⁾ التي شكلت نقطة الانطلاق لهم إلى بقية مناطق اليمن.

لم يكن بنو طاهر يعيدون عن هذه الأحداث العظام التي تعيشها الدولة الرسولية عامة وعدن خاصة، فقد توجهوا إلى عدن واستطاعوا هزيمة السلطان المسعود، مما دفعه للتخلي عن السلطنة جماد الآخرة 858هـ/1454م⁽⁷²⁾، ونجحوا كذلك في السيطرة على عدن والقبض على من بقي من الرسولين، خاصة السلطان المؤيد الذي فرضوا عليه الإقامة، ثم سمحوا له فيما بعد بالخروج إلى مكة⁽⁷³⁾، لتقوم بعدها دولة بني طاهر خلفاً لبني رسول.

أدت الهزات التي تعرضت لها الدولة الرسولية إلى عجز السلاطين المتأخرين عن دفع مرتبات الجند، فزادت ثورات مماليك الدولة، حتى عجز السلاطين الرسولين المتأخرين في إيقافها، وخرجت الكثير من القبائل عن الطاعة لهم، غير أن سلاطين الدولة الطاهرية تمكنوا منذ البداية من المحافظة على ما تبقى من الدولة، وعملوا على عدم انهيارها التام، فاستطاعوا إخضاع مماليك الدولة في مناطق عدة من اليمن (عدن- زبيد- حصن حب⁽⁷⁴⁾...)، وأجبروا القبائل على الطاعة، سواءً بالقوة أو بالمال، ولعل العامل الهام الذي ساعدهم في ذلك أن أسرة بني طاهر كانت أسرة

(67) - الدمشقي، أبي الفضل جعفر بن علي، الإشارة إلى محاسن التجارة، تحقيق: البشري الشوربيجي، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1977م، ص 70-75.

(68) - عبد العال، بنو رسول وبنو طاهر، ص 463.

(69) - عبد العال، بنو رسول وبنو طاهر، ص 463.

(70) - ابن الديبع، الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد، تحقيق: يوسف شلحد، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، 1983م، ص 181.

(71) - المقرانه: بكسر الميم قرية قديمة في بلاد رداغ كانت مقر أسرة بني طاهر التي حكمت اليمن بعد سقوط الدولة الطاهرية، وقد برزت شهرتها منذ زمن السلطان الطاهري عامر بن عبد الوهاب، وهي الآن أطلال. (ابن الديبع، قرّة العيون، ص 389، هامش 5).

(72) - الخزرجي، المسجد، ص 598.

(73) - عبد العال، بنو رسول وبنو طاهر، ص 463.

(74) - حصن حب: قلعة حصينة بالقرب من مدينة إب، بنواحي بعدان. (محمد عبد العال، بنو رسول وبنو طاهر، ص 67، هامش 1).

تجارية بامتياز، فقد استطاع السلطان الطاهري الظافر عامر بن طاهر⁽⁷⁵⁾ من السيطرة على مناطق واسعة من اليمن سنة 859هـ/1455م حتى قيل عنه "انقادت له العريان وذلت له الأقران، ودانت له العباد، وأمنت به العباد، وانقمع به المعتدون"⁽⁷⁶⁾.

استمرار النشاط التجاري في ميناء عدن في العهد الطاهري بفعل العدد من العوامل سواءً كانت عوامل طبيعية أو تاريخية متراكمة عبر العصور التاريخية السابقة لبني طاهر، ولعل من أبرز ذلك السمات التي تميز بها انعاش تجارة المرور بين عدن وأقطار الشرق الأقصى من ناحية وبينها وبين العالم الإسلامي من ناحية أخرى⁽⁷⁷⁾.

2-3 بروز بني طاهر التجاري في عدن:

استفاد سلاطين بني طاهر الكثير من الأموال من ميناء عدن ومتحصلات نشاطها التجاري، ومن الإشارات في ذلك أن السلطان الطاهري المنصور عبد الوهاب بن داود⁽⁷⁸⁾ (883-894م/1479-1489م) عندما دخل عدن في بداية حكمه "حمل ما وجده في خزائنها إلى المقرنة، ومبلغها من الذهب ينيف على خمسة لكوك، ومن نقد البلد من الفضة مبلغ جزيل"⁽⁷⁹⁾، وهذه الأموال ساعدته ومن جاء بعده في السيطرة على المناوئين لهم، فقد عرض خلفه السلطان الظافر الثاني عامر بن عبد الوهاب⁽⁸⁰⁾ على بني عمومته المعارضين له مبلغ أربعين ألف دينار كل عام⁽⁸¹⁾، ويبدو أن تلك الأموال كانت من متحصل عدن من الضرائب والمكوس⁽⁸²⁾، والتجارة، ولذلك نجد نفس السلطان سنة 902هـ/1497م يسلم إليه نائبه على عدن "خزانة عظيمة من المال من مدينة عدن فيها من النقد وقر خمسة وثلاثين جملاً من الذهب والفضة ما عدا العروض"⁽⁸³⁾، وذلك في فترة التراجع التجاري لميناء عدن، غير أن تساؤل يطرح نفسه هنا: كم كان الدخل إذن في عدن في فترة ازدهار الرسولي؟ نجد الاجابة على هذا التساؤل في المصادر الرسولية، فمؤلف تاريخ الدولة الرسولية يذكر بأن ما كان يرفع للسلطان الرسولي قبل تراجع التجارة في عدن تجاوز العشرة لكوك بل قد تصل إلى سبعة عشر لكوك⁽⁸⁴⁾، ولمعرفة كم يساوي لكوك من حمل الجمال والقوافل نجد الاجابة والتحديد عند الخزرجي الذي يتحدث عن سنة 799هـ/1397م بأن قافلة تجارية تعرضت للنهب، وكانت عدتها ثمانون

(75) - هو السلطان الطاهري الظافر عامر بن طاهر، من أوائل سلاطين الدولة الطاهرية، حكم خلال الفترة 858-870هـ/1454-1466م)، وقد حكم مع أخيه الملك المجاهد علي بن طاهر الذي أكمل الحكم منفرداً بعد مقتل الملك الظافر.

(76) - عبد العال، بنو رسول وبنو طاهر، ص 463.

(77) - (جونتائين، س.د. دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية، تعريب وتحقيق: عطية القوصي، وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة الأولى، 1980م، ص 251.

(78) - السلطان الطاهري المنصور عبد الوهاب بن داود، ثالث سلاطين بني طاهر في اليمن، حكم خلال الفترة (833-894هـ/1479-1488م)، وهو ابن أخ الملك المجاهد علي بن طاهر، واستطاع السيطرة على الكثير من المدن اليمنية.

(79) - ابن الديبع، بغية المستفيد، ص 154، ابن القاسم، غاية الأمان، ص 610.

(80) - هو السلطان الظافر الثاني عامر بن عبد الوهاب، رابع سلاطين بني طاهر في اليمن، وحكم خلال الفترة (894-923هـ/1489-1517م)، وهو ابن السلطان المنصور عبد الوهاب بن داود الطاهري.

(81) - ابن القاسم، غاية الأمان، ص 616.

(82) - المكوس: دراهم تفرض كضريبة على بائعي السلع في الأسواق. (ابن منظور، جمال الدين محمد، لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، 1990م، ج 13، مادة (مكس)، وأصبحت المكوس عبارة عن ضرائب سلطانية فرضة على الناس. (المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، 1995م، ج 2، 328-330.

(83) - ابن الديبع، الفضل المزيد على بغية المستفيد، ص 235.

(84) - مجهول، تاريخ الدولة الرسولية، ص 130، 160.

جمالاً عليها من الذهب والفضة أكثر من عشرة لكوك⁽⁸⁵⁾، ونستنتج من ذلك أن دخل بني طاهر من عدن انخفض إلى النصف، فقد كان ما يحصلونه في سنة 902هـ/1497م ما مقداره حمل خمسة وثلاثون جملاً من الذهب والفضة، وهو ما يساوي وفقاً لإشارة الخزرجي خمسة لكوك.

3-3 ضعف النشاط التجاري في العهد الطاهري:

لم يعد النشاط التجاري في العهد الطاهري كما كان في عهد بني رسول، بل قلّ كثيراً، ولعل أسباباً عدة أدت إلى ذلك، فقد ورث بني طاهر بلاداً تسودها الفوضى والاضطرابات وتمزقها الفتن الداخلية، وخرجت الكثير من القبائل على الدولة الطاهرية، واستقلت بما كان بحوزتها من البلاد، مثل: القرشين، والمعازبة⁽⁸⁶⁾، وبني حفيص⁽⁸⁷⁾، وغيرهم، وإن كان أغلب هذه القبائل في تهامة، شمال زبيد.⁽⁸⁸⁾

حرص بني طاهر على تجنب الصراع الأسري على السلطنة في خطوة حاولوا من خلالها تجنب الخطأ الذي وقع فيه بني رسول قبلهم وأودت بهم في نهاية الأمر مع أسباب أخرى مصاحبة، ولهذا كان السلطان الطاهري يستصحب معه أفراد أسرته في معظم حملاته التي يخرج إليها.⁽⁸⁹⁾

حاول سلاطين بني طاهر مد نفوذهم على الساحل الممتد من الشحر⁽⁹⁰⁾ بعد هزيمة أبو دجانة⁽⁹¹⁾ وأسرته، ليعرض على بني طاهر تسليم الشحر مقابل فك أسره، وبذلك دخلت الشحر تحت نفوذ الدولة الطاهرية سلباً سنة 863هـ/1459م⁽⁹²⁾، مما ساهم في ردف الخزنة الطاهرية بالأموال وعضو النقص في عدن ومينائها ولو إلى حين.

إن ما كسبته عدن من أهمية تجارية واقتصادية وجغرافية ساعدت الدولة الطاهرية على استمرارها بالدور التجاري في عدن وإن كان دوراً أقل بكثير مما كان عليه من قبل، فدخّل سلاطين الطاهريين في علاقات سلمية مع المماليك في مصر أو الحجاز تقوم على الاحترام المتبادل، وربما يرجع ذلك لأسباب عدة منها:

- قناعة السلاطين الطاهريين بقوة المماليك في مصر، وبأن ميناء جدة أصبح أكثر قوة تجارية من ميناء عدن.
- اكتفائهم بالمشاركة التجارية الشرقية والاستفادة منها مع ترك الإشراف عليها للمماليك في مصر.
- تجنبهم للمصادمة مع ممالك مصر، ولذلك عملوا على إرسال السفارات والهدايا لسلاطين المماليك في مصر.⁽⁹³⁾

(85) - الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج2، ص288

(86) - أحدى قبائل تهامة الأشداء، كانوا يسكنون بجوار قبيلة القرشين، إلى الشمال من زبيد، وكانوا معاً من أكثر القبائل خروجاً على سلاطين بني رسول وبني طاهر، (عبد العال، بنو رسول وبنو طاهر، ص293، 295).

(87) - قبائل تهامة موطنها قريباً من جزيرة كمران وما جاورها، وخاصة مدينة الزيدية، وهم على المذهب السني ورغم تسمية المدينة باسمهم فهم لا يتصلون بالزيدية بأي صلة. (عبد العال، بنو رسول وبنو طاهر، ص300، 301).

(88) - ابن الديبع، بغية المستفيد، ص97،

(89) - ابن الديبع، بغية المستفيد، ص97، 109.

(90) - الشحر: تقع الشحر على ساحل بحر الهند بين عدن وعمان. (عبد العال، بنو رسول وبنو طاهر، ص21، هامش5).

(91) - محمد بن سعيد الكندي، الملقب بأبو دجانة، من قبيلة كنده، كان حاكماً لبلاد الشحر وما جاورها، ولما طرد بنو طاهر قبائل آل كلد اليافعين من عدن، توجهوا إلى الشحر، وأغروا صاحبها أبو دجانة بمهاجمة عدن وسيساندونه في ذلك، فتوجه بتسعة مراكب إلى عدن للسيطرة عليها، غير أنه هزم وأسر. (عبد العال، بنو رسول وبنو طاهر، ص262-264).

(92) - ابن الديبع، الفضل المزيد على بغية المستفيد، ص100.

(93) - ابن الديبع، الفضل المزيد على بغية المستفيد، ص261، 262.

4-3 تحول النشاط التجاري إلى جدة على حساب عدن:

أصبحت العلاقة متينة بين ممالك مصر وأشرف الحجاز في العهد الطاهري في اليمن، حيث منح شريف مكة لقب "نائب السلطان" وهو لقب شبيه باللقب الذي كان يحمله الحكام المماليك في سوريا، كما صارت سلطة الشريف على كافة أنحاء الحجاز، غير أن ذلك اللقب كان حبراً على ورق، فمُنح شريف مكة لقب "نائب السلطان" - الشبيه باللقب الذي كان يحمله الحكام المماليك في أقاليم سوريا- مع سلطة على كافة أنحاء الحجاز، ولكنه كان حبراً على ورق، إلا إذا ما استثنينا الشريف حسن ابن عجلان، الذي حكم من 1395هـ حتى 1426هـ، حيث كان يتمتع بصفة الحاكم الحقيقي، وساهم أكثر ممن سبقه من الأشراف في تحسين مدينته.⁽⁹⁴⁾

لم يكن التجار يمرون من الهند مباشرة إلى سواحل البحر الأحمر مباشرة سواءً في الحجاز أو مصر، وإنما كانوا ينزلون في ميناء عدن، ومن ثم يواصلون طريقهم البحري منها إلى موانئ البحر الأحمر المختلفة، وفي ذلك يشير ابن حوقل إلى وجود جبال كثيرة في البحر الأحمر قد علاها الماء، ورغم معرفة طرق السفن بينها، إلا أن ربان السفن لا بد لهم من أن يتخللوا هذه الطرق نهراً، ولا يمكنهم أن يسلكوها ليلاً، رغم صفاء مياه البحر الأحمر، ... وتعرض فيه المراكب للمخاطر إلا من سلمه الله⁽⁹⁵⁾، يعود ذلك لكثرة الشعب المرجانية والصخور ذات الرؤوس الحادة الكامنة تحت مياه البحر، لذا كانت السفن والمراكب الشراعية لا تسير إلا نهراً فقط⁽⁹⁶⁾، حتى كان تحول التجارة عن ميناء عدن إلى ميناء جدة والذي كان له دور فاعل في ضعف واردات الدولة منذ أواخر الدولة الرسولية، بل هو من الأمور التي عجلت بنهايتها، غير أن أول إشارة تفيد بهذا التحول ترد سنة 825هـ/1422م، عندما نجح أحد التجار التوجه مباشرة في عرض البحر إلى جدة دون التوقف في ميناء عدن كما كان التجار يعملون، ويدعى هذا التاجر الخواجا⁽⁹⁷⁾ إبراهيم، الذي يقول عنه المقرئ: "وجرت العادة من القديم أن مراكب تجار الهند ترد إلى عدن، ولم يعرف قط أنها تعدت بندر عدن، فلما كان سنة خمس وعشرون (وثمانمائة) خرج من مدينة كاليكوت⁽⁹⁸⁾ ناخذاً اسمه إبراهيم، فلما مرّ على باب المنذب جور⁽⁹⁹⁾ بطرداه⁽¹⁰⁰⁾ حنقاً من صاحب اليمن لسوء معاملته التجار، ... فعاد في سنة سبع وعشرين (وثمانمائة) وجور عن عدن ومرّ بجدة يريد ينبع⁽¹⁰¹⁾، وكان بمكة الأمير قرقماس⁽¹⁰²⁾، فما زال يتلطف

(94) - د. جوليان لوازو، الجزيرة العربية والمدن المقدسة في القرون الوسطى، ضمن موسوعة طرق التجارة القديمة، روائع آثار المملكة العربية السعودية، متحف اللوفر، باريس، الهيئة العامة للسياحة والآثار، الرياض، 14 يوليو- 27 سبتمبر، 2010م، صفحات(397-408)، ص.406.

(95) - ابن حوقل، أبي القاسم النصبي، صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1992م، ص51

(96) - شهاب، حسن صالح، فن الملاحة عند العرب، دار العودة، 1992م، ص229.

(97) - الخواجا: لقب أطلق على كبار التجار. (ابن الديبع، الفضل المزيد، ص327، 328، 389).

(98) - كاليكوت: ميناء ومركز تجاري هام لتجارة التوابل والأحجار الكريمة. وتقع على ساحل ملابار على الشاطئ الغربي للهند. (عبد العال، بنو رسول وبنو طاهر، ص434، هامش2).

(99) - جور: تجاوز عدن هرباً من دفع ما عليه من عشور وضرائب تجارية.

(100) - بطرداه: الطراد نوع من السفن السريعة.

(101) - ينبع: برز دور ميناء ينبع في العصر المملوكي حيث اتخذوه ميناء رئيسياً للمدينة، فاشتره من الأشراف الحسينيين أهل ينبع النخل، فكانت ينبع محطة بحرية لتجار الشام ومصر، فأصبحت ينبع الميناء الثاني في الحجاز بعد جدة. (د.جوليان لوازو، الجزيرة العربية والمدن المقدسة في العصور الوسطى، ص404، الغثيان، علي بن إبراهيم، طريق الحج المصري، موسوعة طرق التجارة القديمة روائع أثار المملكة العربية السعودية، متحف اللوفر، باريس، الهيئة العامة للسياحة والآثار، الرياض، 14 يوليو- 27 سبتمبر، 2010م، صفحات(461-466)، ص461.

(102) - الأمير قرقماس: هو قرقماس الشعباني مبعوث السلطان المملوكي إلى الحجاز سنة 826هـ/1423م.

بإبراهيم حتى أرسى على جدة بمركبين فجامله أحسن مجامله حتى قويت رغبته.. وعاد في سنة ثمان وعشرين (وثمانمائة) ومعه أربعة عشر مركباً موسوقة بضائع".⁽¹⁰³⁾

أدى بروز ميناء جدة إلى سحب البساط على ميناء عدن وصاحبه السلطان الرسولي، وفي ذلك يقول المقرئ: "التجار وجدوا راحة بجدة بخلاف ما كانوا يجدون بعدن، فتركوا بندر عدن، واستجدوا بندر جدة عوضه، فاستمر بندر جدة عظيماً وتلاشى أمر عدن من أجل هذا، وضعف حال ممتلك اليمن"⁽¹⁰⁴⁾، ولعل هذا التحول لم يكن مصادفة أو فردياً، بل كان بتنظيم من قبل المماليك في مصر وواليهم في الحجاز، في عهد السلطان المملوكي برسباي الذي أرسل مراقباً مالياً ليجي ضريبة البضائع التي ستفرغ في ميناء جدة⁽¹⁰⁵⁾، ثم "صار ناضر جدة وظيفه سلطانية يخلع على متوليها ويتوجه في كل سنة إلى مكة في أوان ورود مراكب الهند، ويؤخذ ما على التجار، ويحضر إلى القاهرة"⁽¹⁰⁶⁾ به، وبلغ ما حمل إلى الخزانة من ذلك زيادة على سبعين ألف دينار سوى ما مالم يحمل"⁽¹⁰⁷⁾، ولإنجاح هذا المشروع قام الشريف الحسن بن عجلان⁽¹⁰⁸⁾ متولي أمر مكة بإلغاء ثلث ما كان مفروضاً على التجار في جدة من الضرائب⁽¹⁰⁹⁾، وتكليف نائب على جدة يفوض إليه إصلاح فرضة جدة ليحاكي فرضة عدن⁽¹¹⁰⁾، وقد حدد اسم هذا النائب الذي تم تكليفه من قبل المماليك في مصر بسعد الدين إبراهيم بن المرة⁽¹¹¹⁾، مهمته تحصيل ضرائب التجار

(103) - المقرئ، تقي الدين أبي العباس أحمد، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1997م، (ج7 سنة 823-844هـ)، ص111-112، ومن عجائب الأخبار أن الناخوذة إبراهيم الذي كان سبباً في تطور ميناء جدة بمغامرته بالدخول إلى البحر الأحمر وإرساء سفينته في ميناء جدة، كتب الله تعالى له أن يُقتل شناً في مدينة جدة سنة 831هـ عقاباً له على جريمة قتل ارتكها في سفينته. (ابن فهد، النجم عمر بن محمد، اتحاف الوري بأخبار أم القرى، تحقيق: د. عبد الكريم علي باز، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث، جامعة أم القرى، الطبعة الأولى، 1988م، ج4، ص17).

(104) - المقرئ، السلوك، ج7، ص111-112، وكان يحكم اليمن في هذا الوقت السلطان الرسولي الناصر أحمد (803-827هـ/1400-1424م).

(105) - د. جوليان لوازو، الجزيرة العربية والمدن المقدسة في القرون الوسطى، ص406.

(106) - القاهرة: هي المدينة التي أنشأها القائد الفاطمي جوهر الصقلي قائد الخليفة الفاطمي المعز لدين الله، بعد أن استطاع دخول مصر سنة 969هـ/969م، وبعد بناء مدينة القاهرة وتأسيس الجامع الأزهر، وتشيد قصر الخلافة، توجه سيده على مصر ودخلها سنة 361هـ/972م. انظر: (خضيري، حسن أحمد، علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب، 262-567هـ/973-1171م، مكتبة المتنبى، الدمام، 2014م، ص28، 34).

(107) - المقرئ، السلوك، ج7، ص112.

(108) - الشريف حسين بن عجلان: شريف مكة وحاكم الحجاز والمشرف على جدة في عهد السلطان المملوكي برسباي، وقد زاد نفوذ هذا الشريف، مما أقلق سلاطين المماليك في القاهرة، حيث غالي هذا الشريف في فرض المكوس والضرائب على التجار الذين ضجوا بالشكوى، فوجه سلطان المماليك برسباي حملة عسكرية إلى مكة أقصت الشريف حسين بن عجلان، وعينت غيره، ثم ربطت جدة بمصر عن طريق الإشراف المباشر للمماليك عليها. انظر: عطية القوصي، عيذاب جدة طريق الحج المصري على البحر الأحمر في العصور الوسطى، صفحات (311-340)، ص335، ندوة طرق الحج: جسور للتواصل بين الشعوب، أعمال ندوة طرق الحج، القاهرة 14-16 ربيع الآخر 1423هـ/ 25-27 حزيران، 2002م، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة- إيسيسكو، 1428هـ/2007م.

(109) - الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق: فؤاد سيد، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1986م، ج4، ص90.

(110) - الفاسي، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، ج4، ص100، 101.

(111) - هو سعد الدين بن إبراهيم بن المرة، ناظر جدة منذ سنة 828هـ/1425م من قبل السلطان المملوكي برسباي. راجع: (المقرئ، السلوك، ج7، ص111-112).

بميناء جدة سنة 828هـ/1425م، ومن ثم القيام بتخريب ميناء عيذاب⁽¹¹²⁾ حتى لا ينافس ميناء جدة في السنة التالية 829هـ/1426م⁽¹¹³⁾، وإن كان ميناء سواكن سيحل محل عيذاب في مهام التجارة والحج⁽¹¹⁴⁾.

هذا التطور التجاري في ميناء جدة أدى إلى أضرار كبيرة بميناء عدن، خاصة في الجانب التجاري والاقتصادي، ولذلك حاول سلاطين بني رسول المتأخرين⁽¹¹⁵⁾ بذل أي جهد يضمن عدم فقدانهم التعشير للسفن التجارية القادمة من الهند، فقرروا منع السفن التجارية من تجاوز عدن في الاتجاه إلى ميناء جدة، بل وأعدوا مراكب ديوانية لمتابعة "المجورين"⁽¹¹⁶⁾، وتحويل وجهتهم إلى عدن⁽¹¹⁷⁾، وبدأ هذا الإجراء يؤتي ثماره بعود بعض السفن التجارية إلى عدن طوعاً⁽¹¹⁸⁾، وكانت النتيجة الطبيعية لذلك ارتفاع أسعار السلع في أسواق مصر مما قلل من فرصة الربح المجزي للدولة والتجار في مصر، فضلاً عن أن نسبة كبيرة من التجار بعدن كانوا تجاراً مصريين، لذلك حذر سلاطين المماليك في عام 857هـ/1453م أصحاب السفن الشرقية من الرسو بسفنتهم في عدن، وطلبوا منهم الرسو مباشرة في جدة، وإذا رست السفينة في عدن ضاعفوا عليها الضرائب، فالضريبة على السلع الواردة من الشرق لجدة كانت 10% وضعفها إذا مرت بعدن أولاً، لأنهم كانوا يصادرونها أحياناً، كذلك حرم سلاطين المماليك سفن البحر الأحمر والتجار من التوجه إلى عدن⁽¹¹⁹⁾.

ما قام به سلاطين اليمن كان أمر أفزع السلطان المملوكي في القاهرة، فقام بعدة أمور ضمنمت لمصر المملوكية السيطرة على عائدات ميناء جدة مباشرة ومنها: أصدر قراراً يتوعد ويهدد سلطان اليمن بغزو بلاده، وبالمقابل حاول إقامة علاقات ودية مع حكام الهند والصين⁽¹²⁰⁾، كما استغل رغبة السفن الهندية بالبحث عن بديل لميناء عدن فوفر جميع الظروف الملائمة لرسو السفن في ميناء جدة، حيث أرسل سلطان المماليك في القاهرة لرجل يدعى سعد الدين إبراهيم بن المرة إلى جدة وجعله ناظراً عليها، فقام ببناء جامع جدة، ورتب فيه أربا الوظائف من

(112) - عيذاب: "مدينة قبالة جدة يُحرم منها من قصد من ذلك الوجه..." (المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص78)، وهي بليدة على شاطئ بحر جدة، يعدي منها الراكب المصري المتوجه للحجاز على طريق قوص في ليلة واحدة في أغلب الأوقات... وهي من أجل مراسي الدنيا، بسبب أن مراكب اليمن والهند تحط فيها وتقلع منها، زيادة على مراكب الصيادين والواردين..." (علي باشا مبارك، الخطط التوفيقية، ج14، هيئة الكتاب، 2008م، ص17).

(113) - القوصي، عطية، عيذاب جدة طريق الحج المصري ص334، دراج، أحمد، عيذاب من الثغور العربية المندثرة، المؤرخ العربي، عدد8، بغداد، 1974م، صفحات53-70.

(114) - الوزان، الحسن، وصف إفريقيا، تحقيق: عبد الرحمن حميدة، هيئة الكتاب، 2005م، ص595.

(115) - بدأ عهد سلاطين بني رسول المتأخرين الضعاف من عهد السلطان عبد الله بن الناصر أحمد، تاسع سلاطين الدولة الرسولية، الذي حكم خلال الفترة (827-830هـ/1424-1427م)، فهو أول السلاطين الضعاف، وحكم بعده خمسة سلاطين آخرهم المسعود أبو القاسم بن إسماعيل الثاني الذي سقطت الدولة الرسولية بخروجه من عدن ثم من اليمن إلى مكة سنة 858هـ/1454م، وقامت الدولة الطاهرية مكانها.

(116) - المجورين: هم التجار الذين يتجاوزن ميناء عدن ولا يسلمون ما يجب عليهم من عشور وضرائب.

(117) - مجهول، تاريخ الدولة الرسولية، تحقيق: عبد الله الحبشي، مكتبة الجيل الجديد، صنعاء، 1984م، ص216-217.

(118) - ريتشارد مورتيل، الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي، الرياض، 1985م، ص186.

(119) - فهيم، نعيم زكي، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بالشرق والغرب وأواخر العصور الوسطى، مصر، 1973م، ص137-138.

(120) - عطية القوصي، عيذاب جدة طريق الحج المصري على البحر الأحمر في العصور الوسطى، ص336.

إمام للصلوات، وخطيب الجمعة ومؤذناً...⁽¹²¹⁾، وقام ببناء فرضة (ميناء)، وجهز السلطان مع سعد الدين إبراهيم خمسين مملوكاً لدفع بني حسين والقواد عن التعرض لجدة.⁽¹²²⁾

وجد تجار الهند الراحة بعد معاناتهم من حكام عدن وتجارها، فأفل نجم عدن، وحلت محله مدينة جدة، حتى ذكر أن ما كان يُحمل من عشور التجار إلى الخزانة السلطانية في القاهرة يزيد على السبعين ألف دينار.⁽¹²³⁾

أصدر السلطان المملوكي في القاهرة قراراً آخر بإلغاء جميع الضرائب المفروضة على التجار في ميناء جدة، غير العشور فقط، ومصادرة البضائع إذا وردت عن طريق عدن⁽¹²⁴⁾، كل ذلك أشعل التنافس على اغتنام مكاسب التجارة الشرقية عبر البحر الأحمر ممثلاً في ثلاث قوى سياسية: (حكام الممالك في مصر وحاكم الحجاز "الأشراف"، وحاكم اليمن من الرسولين ثم الطاهريين)، مع أن هذه القوى لو تعاونت فيما بينها لحققت التكامل التجاري فيما بينها، إلا أن العكس هو الذي حصل، فقد وقعت عدة صراعات سياسية وعسكرية أدت إلى اضطراب حال التجار وتنقلهم في موانئ البحر الأحمر الغربية والشرقية؛ بحثاً عن الميناء الأكثر أمناً واستقراراً، فمن هروب من عدن إلى جدة، أو غيرها من موانئ البحر الأحمر، وقد ابتدأ الأمر منذ ترك سلاطين بني رسول المتأخرين - المشغولين بالخلافات الداخلية - التجار وشأنهم ومما أضعفهم اقتصادياً ثم عجل بزوالهم.

بالمقابل نجد أن التجارة المصرية حولت مسارها عن عدن إلى جدة، وإن لم تنقطع رحلاتهم التجارية إلى اليمن بشكل نهائي، نلاحظ ذلك من قول ابن تغري بردي بأن سفينة تجارية مصرية غرقت "قرب ساحل المخا وكان فيها مال عظيم من لبنان وغيره"⁽¹²⁵⁾، ومعنى ذلك أن التجار المصريين إما قدموا إلى المخا أو أنهم في طريقهم من الهند إلى جدة، وإن كان القول الأول هو الأرجح، فقد غرقت في الساحل اليمني "المخا" ولأن حمولتها بها الكثير من "اللبن وغيره" دلّ على تعامل تجارها مع موانئ اليمن سواء المخا أو عدن أو ظفار والشحر، لأن اللبن كان ينتج في اليمن وخاصة في حضرموت⁽¹²⁶⁾، ويحمل مع سلع أخرى إلى عالم البحر المتوسط من وقت ما قبل الإسلام، أما الفوة والخيول وغيرها فكانت تُحمل إلى بلاد الهند والصين، وفي ذلك يقول هيردوت: "إن آخر المناطق المأهولة من ناحية ميديا، هي الجزيرة العربية، إنها البلد الوحيد في العالم الذي ينتج البخور واللبن والصمغ العربي والقرفة والكافور والصمغ الراتنجي الذي يستخدم في صنع العطور"⁽¹²⁷⁾، وإذا كان اللبن والصمغ وأنواع الأفاويه الأخرى تُعدّ من بين أبرز سلع هذه التجارة، كانت البضائع التي تصل إلى موانئ البحر الأحمر تمرّ في هذه المسالك، فمن القرن الإفريقي كان يأتي تير الذهب والعاج وفرو الفهد وأتراس السلاحف، ومن الهند كان يستورد البهار والقاقلة، (الهال) وكبوش القرنفل

(121) - ابن فهد، اتحاف الوري، ج3، ص638.

(122) - ابن حجر، الحافظ العسقلاني، إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق وتعليق: د. حسن حبشي، القاهرة، 1972م، ج3، ص404. أحداث سنة 831هـ.

(123) - ابن فهد، اتحاف الوري، ج3، ص621.

(124) - المقرئ، السلوك، ج7، ص111-112.

(125) - ابن تغري بردي، حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، تحقيق: د. محمد كمال الدين عز الدين، عالم الكتب، الطبعة الأولى، 1990م، ج1، ص55.

(126) - باشا، عبد المقصود، الجانب التاريخي لطرق الحج، ندوة طرق الحج: جسور للتواصل بين الشعوب، أعمال ندوة طرق الحج، القاهرة 14-16 ربيع الآخر 1423هـ / 25-27 حزيران، 2002م، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو، 1428هـ/2007م، صفحات (125-143)، ص130، وحضرموت: ناحية واسعة تقع شرق عدن، ورمالها كثيرة، تعرف بالأحفاف. (ابن حوقل، صورة الأرض، ص44).

(127) - د. فرانسواز ديمانج، قوافل البخور، ضمن موسوعة طرق التجارة القديمة، روائع آثار المملكة العربية السعودية، متحف اللوفر، باريس، الهيئة العامة للسياحة والآثار، الرياض، 14 يوليو - 27 سبتمبر، 2010م، صفحات 123-125، ص123

والتوابل الأخرى العطرة، كذلك كان خشب الصندل والأحجار الكريمة وأقمشة الحرير المنسوجة في الصين، جزءاً من شحنات السفن التي كانت ترسو على الساحل الشرقي للجزيرة العربية.⁽¹²⁸⁾

ومع كل ما سبق فلم يستطع البرتغاليين ولا غيرهم منع العلاقات التجارية اليمنية الحجازية، فظهور نجم ميناء جدة على حساب ميناء عدن في العهد الطاهري لم يمنع استمرار العلاقات اليمنية الحجازية، إما للقرب الجغرافي بينهما، أو للمنافع الاقتصادية المتبادلة بينهما، أو لحاجة اليمن للقضايا الدينية المتعلقة بالحج والعمرة في الأماكن المقدسة، فقد كانت تخرج قافلة اليمن التي كان ينظم إليها في عدن الحجاج الحبشيون⁽¹²⁹⁾، لتعبر ثلاثة طرق أو دروب حتى مكة الأول: الدروب الساحلية، الثاني: المسارات البحرية، الثالث: المسارات البرية الداخلية، وقد كان لهذه القوافل دور كبير في النمو الاقتصادي للمناطق التي تمر بها، وفي توسعها العمراني⁽¹³⁰⁾، وإن كان الطريق البري الداخلي أكثر ملائمة لحجاج ذلك العصر، من حيث اعتدال الهواء، والحصول على الماء، ووجود منازل للراحة، بينما كان الطريق الساحلي أكثر حرارة ووباءً⁽¹³¹⁾، حتى ذهب البعض بأن طريق الحج اليمني برأماً لما فيه من وسائل السفر "الفرق بينه وبين طريق عيذاب كالفارق بين جنة الدنيا ونارها"⁽¹³²⁾، ولاشك أن التجار اليمنيين كانوا يمارسون تجارتهم إلى جدة إما بالسلع التجارية اليمنية، أو بما وصلهم من سلع البلاد الهندية والصينية، أو من بلدان شرق أفريقيا، فتذكر بعض المصادر قدوم بعض من أهل اليمن من حضرموت إلى سواكن على ساحل بحر القلزم من الجانب الإفريقي، واستقروا بها منذ زمن مبكر في الإسلام، صم اختلطوا بالسكان البجاة⁽¹³³⁾، وعُرفوا فيما بعد باسم الحدارب.⁽¹³⁴⁾

(128) - د.فرانسواز ديمانج، قوافل البخور، ص125.

(129) - د.جوليان لوازو، الجزيرة العربية والمدن المقدسة في القرون الوسطى، ضمن موسوعة طرق التجارة القديمة، أثار المملكة العربية السعودية، متحف اللوفر، باريس، الهيئة العامة للسياحة والآثار، الرياض، 14 يوليو- 27 سبتمبر، 2010، صفحات (397-409)، ص 404

(130) - الثنيان، محمد عبد الرحمن، طريق الحج اليمني الأعلى (النجدي) بين صنعاء ومكة المكرمة، ضمن موسوعة طرق التجارة القديمة، روائع أثار المملكة العربية السعودية، متحف اللوفر، باريس، الهيئة العامة للسياحة والآثار، الرياض، طبع في إيطاليا، (المجموعة الأوروبية)، 14 يوليو- 27 سبتمبر، 2010م، صفحات (469-477) ص469.

(131) - إسماعيل، أحمد علي، طرق الحج، دراسة جغرافية، ندوة طرق الحج: جسور للتواصل بين الشعوب، أعمال ندوة طرق الحج، القاهرة 14-16 ربيع الآخر 1423هـ/ 25-27 حزيران، 2002م، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة- إيسيسكو، 1428هـ/2007م، صفحات (98-125)، ص118.

(132) - إمام، محمد كمال الدين، طرق الحج وقوافله في التاريخ الثقافي، ندوة طرق الحج: جسور للتواصل بين الشعوب، أعمال ندوة طرق الحج، القاهرة 14-16 ربيع الآخر 1423هـ/ 25-27 حزيران، 2002م، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة- إيسيسكو، 1428هـ/2007م، صفحات (361-374)، ص367.

(133) - البجة هو الاسم الذي أطلقه الكتاب العرب على مجموعة القبائل البدوية الحامية الحقيقية، والتي تعيش في المنطقة الشرقية بين النيل وعطيرة والبحر الأحمر. انظر: سبنسر تريمنجهام، الإسلام في السودان، ترجمة فؤاد محمد عكود، المشروع القومي للترجمة (234)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2001م، ص19-21، بلاد البجة: تمتد أرض البجة من أسوان شمالاً إلى الأطراف الشمالية لهضبة الحبشة جنوباً، ومن البحر الأحمر شرقاً، وحتى غرباً، تلك الأراضي التي تشكل الموطن الأصلي للبجة منذ أقدم العصور. ويُعرف سكان هذه البلاد باسم: البجاة. انظر مسعد، مصطفى، البجة والعرب، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، العدد 21، المجلد الثاني، ديسمبر 1959م، ص4.

(134) - انظر: القوصي، عطية، تاريخ ميناء باضع في القرون الخمسة الأولى للإسلام، مجلة الدراسات الإفريقية، العدد الحادي عشر، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، 1982م، ص4-5.

أما عن علاقة تجار اليمن بالحجاز ففي حوادث عام 911هـ/1505م يذكر ابن الديبع أن مركباً عظيماً فيه أموال كبيرة لجماعة من التجار خرج من عدن قاصداً جدة قد انكسر في الطريق⁽¹³⁵⁾، كما استقر بعضاً من التجار اليمنيين في مدن الحجاز وخاصة مكة، وقاموا بأعمال تجارية بها، نلاحظ ذلك من إشارة لابن الديبع لسنة 909هـ/1504م يذكر فيها تعرض تجاراً من زبيد للتهب في باب مكة، وكانوا في طريقهم إليها من جدة.⁽¹³⁶⁾

استمر الدور التجاري لعُدن -رغم تراجعها على حساب ميناء جدة- الذي كان قد قطع شوطاً كبيراً في التجارة الشرقية في العهد المملوكي، فقد استفاد بنو طاهر في اليمن من خبرتهم التجارية، وأكملوا إدارة دفة النشاط التجاري لعُدن ومينائها دون التدخل في الإشراف المباشر على التجارة الشرقية التي كان يقوم بها السلاطين الرسوليون سابقاً، وقد جاء هذا التنازل لسلاطين المماليك الذين أخرجوا القضاء على بني طاهر ما داموا لا يشكلون تهديداً حقيقياً لهم.

3-5 استمرار النشاط التجاري في عدن رغم تحول زخم التجارة إلى جدة:

رغم ما سبق فلم تفقد عدن زخمها التجاري، فما زال يرتادها بعض التجار بحكم الفترة الطويلة التي ظلوا يمارسون التجارة فيها، أو أن بعضهم قد استقر بها في حافات (أحياء) خاصة في مدينة عدن عرفت بأسمائهم⁽¹³⁷⁾، حيث ظلت هذه الجاليات في أماكن محددة في مدينة عدن، عُرفت بأسماء تُنسب إلى بلدانهم الأصلية، ففي أحدث سنة 908هـ/1502م تعرضت حافة الأحباش لحريق أودى بها كاملة⁽¹³⁸⁾، كما كان لليهود حافة خاصة بهم في عدن عرفت باسم "حافة البانين"⁽¹³⁹⁾، والمقصود بهم التجار اليهود المقيمين في مناطق خاصة في عدن، وحافة الزيالعة، ولم يقتصر الأمر على التجار الأجانب فقط بل كان فيها قاطنون من التجار العرب يطلق عليهم الشاميون والمغاربة، وهم من سيقدمون النصائح للسلطان الطاهري عن كيفية الدفاع عن عدن أثناء هجوم ممالك مصر عليها سنة 922هـ/1516م⁽¹⁴⁰⁾، ومن بينم برز كبار التجار الذين أُطلق عليهم لقب الخواجا⁽¹⁴¹⁾، غير أن هذا اللقب لم يقتصر استخدامه على بلد ما دون غيره، فقد استخدم في عدن وجدة ومكة، حيث ظل مرتبطاً بكبار التجار بشكل عام، حتى بعد ظهور البرتغاليين في السواحل الشرقية.⁽¹⁴²⁾

إلا أن المصادر المعاصرة لا تجيب على كثير من الأسئلة الملحة، مثل ما البضائع التي كان هؤلاء التجار الأجانب المستقرين في عدن يقومون بالتجارة بها؟ وما الأصول التي ينتمون إليها؟ وكيف قدموا إلى عدن؟ لا نجد إجابات على هذه التساؤلات وإنما ما نحصل عليه ذكر لقب مقتضب لهؤلاء التجار الأجانب فلا يذكر أحدهم إلا عند الإشارة إلى حادثة حصلت له، فابن الديبع يذكر مركب "سلطان كنباية"⁽¹⁴³⁾، ومركب "الشخص من

(135) - ابن الديبع، الفضل المزيد، ص291.

(136) - ابن الديبع، الفضل المزيد، ص284.

(137) - الحافة: هي يسكنه عادة الأجانب الذين ينتمون إلى أصل واحد. (ابن الديبع، بغية المستفيد، ص15، مقدمة المحقق).

(138) - ابن الديبع، الفضل المزيد، ص274.

(139) - بامخرمة، ثغر عدن، ص187.

(140) - بامخرمة، ثغر عدن، ص20-21.

(141) - ابن الديبع، الفضل المزيد، ص327، 328، 389.

(142) - انظر: مجهول، تاريخ الدولة الرسولية، ص283، 254.

(143) - ابن الديبع، الفضل المزيد، ص169.

البانيان يسمى رامة⁽¹⁴⁴⁾، لكن لم يعرض لأي تفاصيل أخرى عن هؤلاء التجار الأجانب، وهل كانوا مقيمين في عدن أم تجار عابرين من عدن إلى مناطق أخرى.

كما لم تتوقف تجارة الأجانب عن عدن، فقد غرق مركب لسلطان كنبايه في عدن سنة 892هـ/1478م⁽¹⁴⁵⁾،

ولا شك أن كنباية أحد التجار الأجانب في عدن، كذلك استمرت تجارة اليمنيين من عدن إلى الهند، ففي سنة

1490هـ/1490م قام السلطان الطاهري المظفر بتجهيز المراكب إلى الهند⁽¹⁴⁶⁾.

كما غرقت سفن السلطان الطاهري سنة 915هـ/1509م "الواصلة من الهند"⁽¹⁴⁷⁾، وفي ذلك إيحاء باستمرار

العلاقات اليمنية الهندية بعد تواجد البرتغاليين في البحار الشرقية، ففي إشارة لسنة 915هـ/1509م يذكر ابن الديبع

فيها أن "الافرنج" قاموا بنهب المراكب السلطانية القادمة من الهند بعد أن حطمتها الرياح في عرض البحر⁽¹⁴⁸⁾، وهو

هنا يقصد بالافرنج البرتغال المتواجدين في نفس العام في البحار الشرقية.

ازدهرت تجارة الفوة في العهد الطاهري وبلغت شأناً كبيراً حيث تم وضعها في دور خاصة سميت بـ "زريبة

الفوة" قرب دار السعادة⁽¹⁴⁹⁾، وإن كانت المصادر لا تذكر من جلب هذه السلعة وتذكر فقط أن مصدرها جبال اليمن

التي اشتهرت بها⁽¹⁵⁰⁾، ولا شك أن الطاهريين هم من كان يصدرها بلا منازع عبر مراكب خاصة بهم سميت بالمراكب

السلطانية تتجه بها إلى الهند.

مما سبق يتضح لنا مقدار تراجع النشاط التجاري والاقتصادي في ميناء عدن، ومع ذلك فقد حافظ

الطاهريون على هذه النشاط التجاري من السقوط الكامل، وحافظوا على سمعة عدن التجارية وإن تنازلوا على

الإشراف على التجارة الشرقية بشكل كامل، حيث قام بهذا الدور سلاطين المماليك في مصر، إلا أن هذا التصرف

أتاح لهم الاستمرار بالحكم لفترة ليست بالقصيرة، امتدت حتى 923هـ/1517م، وأدر عليهم كثير من الأموال، فقد

استطاع سلاطين بني طاهر إصدار عملة ذهبية وفضية في عهد السلطان الظافر الثاني عامر (894-923هـ/1489-

1517م)⁽¹⁵¹⁾، كما غرسوا آلاف الأشجار⁽¹⁵²⁾، وصرفوا مبالغ كبيرة للفقراء⁽¹⁵³⁾، وكل ذلك يدل على الحالة

الاقتصادية المستقرة لدى الدولة الطاهرية، على الأقل في أواخر عهدها قبل الهجوم المملوكي المصري عليها ومن ثم

إسقاطها.

(144) - ابن الديبع، الفضل المزيدي، ص365، ابن القاسم، غاية الأمان، ص684.

(145) - ابن الديبع، بغية المستفيد، ص169.

(146) - ابن الديبع، بغية المستفيد، ص181.

(147) - ابن الديبع، الفضل المزيدي، ص324.

(148) - ابن الديبع، الفضل المزيدي، ص324.

(149) - ابن الديبع، الفضل المزيدي، ص366، دار السعادة: مقرأ للإشراف الحكومي على التجارة في عدن، وعرف بـ الديوان السعيد،

والمتجر السعيد، والديوان المعمور، وتنسب نشأة هذه الدار للأمير الأيوبي سيف الإسلام طغتكين بن أيوب (ت593هـ/1196م)،

ومكانها مقابل الفرضة من جهة منطقة حققات، وفيها مخازن ومستودعات ومساحات خاصة للسلع التجارية. (الكامل، معالم

ومظاهر، ص320).

(150) - ابن المحاور، تاريخ المستبصر، ص144، 145.

(151) - ابن الديبع، الفضل المزيدي، ص233، 323، وكانت العملة اليمنية في عهد الرسولين تماثل العملة المصرية في العصر المملوكي

(المسماة) الكاملة، كما استمر العمل بالدنانير الذهبية الصليحية التي ضربت في عهد علي الصليحي أو ابنه المكرم، والتي سميت

بالدنانير الملكية، حيث استمر التعامل بها في تجارة الهند في عهدن. (الكامل، معالم ومظاهر، ص330، هامش63).

(152) - ابن الديبع، الفضل المزيدي، ص250.

(153) - ابن الديبع، الفضل المزيدي، ص235، 247.

4 نهاية النشاط التجاري في عدن في العهد الطاهري وعوامل ذلك:

1-4 مدخل: استمرار النشاط التجاري لعدن حتى أواخر الدولة الطاهرية:

هناك العديد من الإشارات التي تبين دور عدن النشط في الجانب التجاري رغم التراجع الحاصل دون شك، ومن تلك الإشارات ما ذكر سنة 892هـ/1487م من أن خلائق كثيرة وأموالاً عظيمة غرق بها مركب لسليمان كنيابة⁽¹⁵⁴⁾، وفي سنة 922هـ/1516م استولى الأسطول المملوكي المهاجم لعدن على أربعة مراكب تجارية منها مركب لتاجر أجنبي يدعى كنيابة مرسال، وشخص اسمه رامة⁽¹⁵⁵⁾، وإن ورد دون تحديد واضح لبلدانهم، فلاشك أنهم تجار أجنب كانوا يمارسون النشاط التجاري في عدن.

2-4 العوامل الداخلية التي أضعفت العائد التجاري لعدن في أواخر العهد الطاهري:

لقد كان لنهاية النشاط التجاري الطاهري في عدن بشكل خاص، ونهاية الدولة الطاهرية بشكل عام عاملين داخلي وخارجي، أما الداخلي فتمثل في:

ضعف الدخل التجاري لميناء عدن ومن ثم محاولة السلاطين المتأخرين أخذ أراضي الفلاحين وضمها لأراضي الدولة لتغطية العجز الحاصل لديها، أو فرض متحصلات وقفية جديدة لتعويض النقص المالي الحاصل، فقد بدأ الشح المالي للدولة في السنوات الأخيرة من سقوط الدولة الطاهرية، مما دفع السلطان الأخير للدولة إلى محاولة اتخاذ القوانين التي تعوض عن ذلك العجز المالي، ومنها أخذ أراضي الفلاحين وإدخالها ضمن أراضي السلطنة، ف"أصاب الناس لذلك تعب عظيم وعظم الضرر"⁽¹⁵⁶⁾، ومنها أيضاً الاستيلاء على نصف متحصلات الأوقاف لمواجهة النفقات المتزايدة سنة 918هـ/1513م⁽¹⁵⁷⁾، كل ذلك لم ليكون لولا تدهور الجانب الاقتصادي والمالي من عائدات عدن ومينائها، ومن العوامل الداخلية التي عجلت بسقوط دولة بني طاهر الخطر الزيدي القادم من المناطق الشمالية الشرقية من اليمن.

3-4 العوامل الخارجية لنهاية النشاط التجاري لعدن في العهد الطاهري:

أما العوامل الخارجية التي عجلت بسقوط دولة بني طاهر وضيقت عليها الخناق المالي والاقتصادي في عدن ومينائها وأصبحت متضافرة مع العوامل الداخلية السابقة الذكر، لكن التركيز هنا ستركز على الجانب الاقتصادي التجاري لعدن ومينائها، ولعل أهم تلك العوامل الخارجية الغزو البرتغالي للسواحل العربية والإسلامية الشرقية، فقد ظهر البرتغاليون عندما سيطروا على السواحل الغربية للهند سنة 904هـ/1498م، ثم استطاعوا تحييد الشرق العربي عن طريق اكتشاف رأس الرجاء الصالح⁽¹⁵⁸⁾، كطريق جديد يربط بين الشرق والغرب، ولعل العلميات الأولى التي اعتمدها القوات البرتغالية في السواحل الشرقية كانت سياسة التهديد والمحاصرة، ففي سنة 904هـ/1498م عسكر القائد البرتغالي بأسطوله عند مدخل البحر الأحمر لغرض منع دخول السفن الأوروبية إلى الموانئ المصرية والشامية⁽¹⁵⁹⁾، ثم هددوا بغزو بلاد الحجاز وقطع كل اتصال بين المحيط الهندي والبحر الأحمر وتحويل متاجر الشرق إلى أسواق لشبونة⁽¹⁶⁰⁾، وبذلك خسر اليمن والحجاز ومصر الكثير من العائدات التجارية، فبقيت البحرية البرتغالية

(154) - ابن الديبع، بغية المستفيد، ص169.

(155) - ابن الديبع، الفضل المزيد، ص327.

(156) - ابن الديبع، الفضل المزيد، ص306.

(157) - عبد العال، بنو رسول وبنو طاهر، ص490.

(158) - George E.Kirk, A short History of Middle East, (London, 1964, P.65).

(159) - عوض، عبد العزيز، الاحتلال البرتغالي لموانئ الجزيرة العربية، مجلة المؤرخ العربي، بغداد، 1986م، العدد 29، ص18.

(160) - دراج، أحمد، الممالك والفرنج في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، القاهرة، 1961م، ص132.

مسيطرة على التجارة التي أثرت بشكل مباشر على اقتصاد البلدان الإسلامية، ومن ضمنها الدولة الطاهرية في اليمن، والدولة المملوكية في مصر، وقد علق ابن إياس على الضرر الذي لحق بالدولة المملوكية في مصر بقوله: "وصاروا (البرتغاليون) يعبثون على مراكب الهند ويقطعون عليهم الطريق في الأماكن المخيفة، ويأخذون ما معهم من بضائع حتى عزّ وجود الشاشات (القماش) والأرز من مصر وغيرها من البلاد"⁽¹⁶¹⁾، مما هدد بالقضاء على طريق تجارة التوابل إلى الأبد بعد تحويلها إلى رأس الرجاء الصالح، وأضعف سلاطين المماليك وساهم بنهاية حكمهم لصالح العثمانيين في معركة مرج دابق شمال سوريا البعيد عن البحر الأحمر سنة 1516م واستطاع فيها السلطان سليم العثماني القضاء على السلطان المملوكي قونصوه الغوري⁽¹⁶²⁾.

ورغم ما سبق؛ فإن المصادر اليمنية لم تذكر الخطر البرتغالي إلا في سنة 908هـ/1502م، وفي ذلك يقول ابن الديبع "ظهرت مراكب الافرنج في البحر بطريق الهند وهرموز وتلك النواحي وأخذوا نحو سبعة مراكب وقتلوا أهلها ... وأخذوا أموالهم"⁽¹⁶³⁾

بعد سيطرت البرتغاليين على هرمز عملوا على إغلاق التجارة في الخليج⁽¹⁶⁴⁾، ثم هاجموا عدن بالمدافع بعد سيطرتهم على سوقطرة⁽¹⁶⁵⁾، ثم عطلوا التجارة الشرقية، وكان لذلك الآثار الكارثية على كثير من بلاد الإسلام وليس على الطاهرين فقط.

وجه سلاطين المماليك في مصر لحكام اليمن من سلاطين الطاهرين تهمة عدم الجدية في مواجهة البرتغاليين، وبعدم قيامهم بما يلزم لمواجهة البرتغاليين عسكرياً، ولذلك قام المماليك في مصر بمهاجمة الدولة الطاهرية بهدف تأديبها لذلك، رغم أن الدولة الطاهرية آخر الدول الشافعية التي حكمت جميع اليمن، وقد امتحنت في آخر أيامها بمحاربة البرتغاليين من الخارج والزيدية من الداخل.⁽¹⁶⁶⁾

تقدم المماليك من الحجاز إلى السواحل اليمنية بغرض مواجهة الدولة الطاهرية، واستطاعوا سنة 922هـ/1516م السيطرة على مدن زبيد وتعز وصنعاء، والتقدم إلى عدن⁽¹⁶⁷⁾، واستباحوا أموال التجار في هذه المناطق التي دخلوها حتى إن بعض المصادر اعتبرت ما حصل على أيدي المماليك في زبيد شبيهه بما حصل لأهل المدينة يوم الحرة⁽¹⁶⁸⁾، وما حصل في صنعاء شبيهه بما جرى لأهل بغداد على يد التتار⁽¹⁶⁹⁾، ومن ثم دخل المماليك إلى عدن وقتلوا السلطان الظافر الثاني الطاهري سنة 923هـ/1517م، ليكون ذلك عاملاً أساسياً من عوامل سقوط ونهاية الدولة الطاهرية اليمن⁽¹⁷⁰⁾.

(161) - ابن إياس، محمد بن أحمد، بدائع الزهور في وقائع الدهور، القاهرة، 1960م، ج4، ص109.

(162) - د. جوليان لوازو، الجزيرة العربية والمدن المقدسة في القرون الوسطى، ص407.

(163) - ابن الديبع، الفضل المزيدي، ص275، ابن القاسم، غاية الأمان، ص630.

(164) - ابن الديبع، الفضل المزيدي، ص306، ابن القاسم، غاية الأمان، ص636.

(165) - ابن الديبع، الفضل المزيدي، ص347.

(166) - العبدلي، أحمد فضل، هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن، بيروت، 1980م، ص97.

(167) - ابن الديبع، الفضل المزيدي، ص369-371، ابن القاسم، غاية الأمان، ص646-652.

(168) - ابن القاسم، غاية الأمان، ص646.

(169) - ابن القاسم، غاية الأمان، ص652.

(170) - ابن الديبع، الفضل المزيدي، ص358.

النتائج:

- ضعف النشاط التجاري في عدن ومينائها بنهاية الدولة الرسولية وخاصة في فترة السلاطين الضعاف، حيث تنازعوها فيما بينهم على الحكم، مما أدى إلى ضعف التجارة والاقتصاد، فقد ظهرت على السطح خلافات العائلة الحاكمة، ما نتج عنه إهدار الكثير من الأموال التي حاول الحكام المتأخرين تعويضها بضرائب جديدة فرضت على التجار.
- لم يتقبل التجار فرض ضرائب جديدة عليهم، فقد ارتفعت الأسعار وقلت الأرباح مما حدا ببعضهم بالبحث عن بديل عن عدن، وقد كان للمغامرة التي قام بها التاجر الخواجا إبراهيم الذي استطاع الوصول إلى جدة دون المرور على عدن دور في أحياء النشاط التجاري لجدة.
- تنبه سلاطين المماليك في مصر لأهمية ميناء جدة في التجارة الشرقية وما يمكن أن يجنوه من أموال فشجعوا التجار، وأرسلوا عمال متخصصين لذلك، ما أدى لانعاش التجارة في جدة على حساب عدن.
- ورث سلاطين بني طاهر دولة مثقلة بالمشاكل الاقتصادية والاجتماعية، حيث كانت القبائل والجند قد تمردوا على السلاطين الرسوليين المتأخرين، ولكن بني طاهر بحكم خبرتهم في الجانب السياسي والاقتصادي استطاعوا إخضاع القبائل والجند لسلطانهم، وكذلك الحفاظ على النشاط التجاري لعدن ومينائها.
- وازن سلاطين بني طاهر بين ممارستهم التجارة الشرقية بين عدن والهند من جهة، وبين علاقتهم بسلاطين المماليك في مصر والحجاز، ولذلك تنازلوا طواعية عن الإشراف على التجارة الشرقية، وتركوا ذلك لسلاطين مصر، ما أدى لحسن العلاقة بين الطرفين، الأمر الذي مكن سلاطين بني طاهر من إدارة النشاط التجاري لعدن لما يزيد على نيفاً وستين عاماً (858-923هـ/1451-1517م)، حيث كانت عدن ومينائها حلقة الوصل بين التجارة الهندية والحجاز ومصر.
- بظهور الخطر البرتغالي في البحار الشرقية وخاصة بحر العرب والبحر الأحمر ومضيق هرمز، حاول البرتغاليون الوصول إلى عدن، والتحكم في التجارة الشرقية، بل عملوا على السيطرة على جدة، ما دفع المماليك في مصر لمهاجمتهم والدفاع عن تجارتهم، ولما شعروا أن سلاطين بني طاهر لم يقوموا بما يجب لمقارعة البرتغال، عمدوا على مهاجمة عدن والقضاء على بني طاهر سنة 923هـ/1451م والسيطرة على عدن ومن ثم خضعت اليمن للمماليك في مصر.

التوصيات:

1. أن يطلع الباحثون عمومًا وباحثوا التاريخ خصوصًا على هذه الدراسة، للوقوف على أهمية النشاط التجاري في عدن في العهد الطاهري (858-923هـ/1451-1517م).
2. أن تعقد ندوة عالمية عن أهمية النشاط التجاري في عدن في العهد الطاهري، ترعاه الجامعات المهتمة بالجوانب التاريخية والاقتصادية، تهتم فيها بمدى التأثير والتأثر في العلاقات التجارية بين عدن والقوى المحيطة بها سواء في الهند أو الحجاز ومصر، أو الساحل الشرقي للبحر الأحمر وقارة أفريقيا.
3. أن يتم التأكيد في مناهج التاريخ على الجوانب التجارية والاقتصادية ومدى تأثيرها في الجوانب السياسية والعلاقات المحلية والإقليمية والدولية.
4. أن تتضمن مناهج التاريخ استخدام الوسائل الحديثة التي توضح الجوانب التاريخية والجغرافية والتجارية والاقتصادية، وتساعد في إبراز الجانب التجاري وتداخله في الجوانب الأخرى المرتبطة به سواء في الجانب الجغرافي أو التاريخي أو الاقتصادي أو السياسي.

المقترحات:

1. أن يتم توظيف الإمكانيات الهائلة التي وصلت إليها الأجهزة الحديثة في إبراز أهمية هذه الدراسة في الجوانب التجارية والاقتصادية، وتوضيح دور الأنظمة الجغرافية في توضيح طرق التجارة العالمية، وإبرازها للمواقع التاريخية التي اكتسبت أهمية عالمية في العلاقات بين الشرق والغرب، ودراسة دورها التاريخي في الشرق الإسلامي.
2. أن يتم تناول موضوع هذه الدراسة في دراسة علمية، ماجستير أو دكتوراه، حتى يُمكن الإحاطة بأفاق الموضوع بصورة أعمق وأشمل، بحيث تُستقصى الأهمية التجارية للمواقع الحيوية في الشرق الإسلامي ومنها النشاط التجاري في عدن في العصر الطاهري.

المصادر والمراجع

المخطوطات:

- الخزرجي، أبو الحسن على بن الحسن، المسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، القاهرة، رقم 736 تاريخ.

المصادر:

- ابن الأثير، أبي الحسن علي بن محمد، الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الرابعة، 2006م، ج10.
- ابن الديبع، عبد الرحمن بن علي الشيباني، قرة العيون في أخبار اليمن الميمون، تحقيق: محمد بن علي الأكوغ، المطبعة السلفية، القاهرة، 1374هـ.
- ابن القاسم، يحيى بن الحسين، غاية الأمان في أخبار القطر اليماني، تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1968م، القسم الأول.
- ابن المجاور، يوسف محمد الشيباني، صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماة تاريخ المستبصر، راجعه: ممدوح حسن محمد، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة 1996م، القسم الأول.
- ابن إياس، محمد بن أحمد، بدائع الزهور في وقائع الدهور، القاهرة، 1960م.
- ابن بطوطة، محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المعروفة برحلة ابن بطوطة، دار صادر، بيروت، د.ت.
- ابن تغري بردي، حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، تحقيق: د. محمد كمال الدين عز الدين، عالم الكتب، الطبعة الأولى، 1990م، ج1.
- ابن حجر، الحافظ العسقلاني، إنباء الغمر بأنباء العمر، تحقيق وتعليق: د. حسن حبشي، القاهرة، 1972م، ج3، أحداث سنة 831هـ.
- ابن حوقل، أبي القاسم ابن حوقل، النصبي، صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1992م.
- ابن خردابة، عبد الله بن عبد الله، المسالك والممالك، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1988م.
- الإدريسي، محمد عبد العزيز، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مؤسسة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت، ج1.
- بامخرمة، أبو محمد الطيب بن عبد الله، تاريخ ثغر عدن، تحقيق: أوسكر لوفجرين، دار التنوير، بيروت، الطبعة الأولى، 1986م.

- بن فهد، النجم عمر بن محمد بن فهد، اتحاف الوري بأخبار أم القرى، تحقيق: د. عبد الكريم علي باز، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث، جامعة أم القرى، الطبعة الأولى، 1988م، ج4.
- الدمشقي، أبي الفضل جعفر بن علي، الإشارة إلى محاسن التجارة، تحقيق: البشري الشوربجي، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1977م.
- الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح، ترتيب: محمود خاصر، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، 2003.
- العمري، ابن فضل الله، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، (القسم الخاص بمملكة اليمن)، قدم له: أيمن فؤاد سيد، دار الاعتماد، القاهرة، 1987م.
- الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق: فؤاد سيد، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1986م، ج4.
- القزويني، زكريا محمد محمود، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، د.ت.
- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب العلمية، بيروت، 1407هـ/1987م، ج3.
- مجهول، تاريخ الدولة الرسولية، تحقيق: عبد الله الحبشي، مكتبة الجيل الجديد، صنعاء، 1984م.
- المقدسي، محمد بن أبي بكر، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة ليدن، بريل، 1906م.
- المقرئ، تقي الدين أبي العباس أحمد، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1997م، (ج7 سنة 823-844هـ).
- المقرئ، تقي الدين أحمد بن علي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، 1995م.
- الملك المظفر يوسف عمر بن رسول، المعتمد في الأدوية المفردة، تحقيق: مصطفى السقاء، دار القلم، 1421هـ/2000م.
- نور المعارف في نظم وقوانين وأعراف اليمن في العهد المظفري الوارف، تحقيق: محمد عبد الرحيم جازم، المعهد الفرنسي للآثار الاجتماعية، صنعاء، الطبعة الأولى، 2003م، ج1.
- ياقوت، شهاب الدين أبو عبد الله، معجم البلدان، تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

المراجع:

- الأكوع، إسماعيل بن علي، البلدان اليمانية عند ياقوت الحموي، دار الجيل الجديد، صنعاء، ط 2، 1988م.
- الجزيري عبد القادر محمد، درر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، المطبعة السلفية، القاهرة، 1384هـ.
- خضير، حسن أحمد، علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب، 262-567هـ/973-1171م، مكتبة المتنبي، الدمام، 2014م.
- دراج، أحمد، المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، القاهرة، 1961م.
- زكي، محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2013.
- شهاب، حسن صالح، عدن فرضة اليمن، مركز الشرعي، صنعاء، 2000م.

- شهاب، حسن صالح، فن الملاحة عند العرب، دار العودة، 1992م.
- عبد العال، محمد أحمد ، بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما، 628-923هـ/1231-157م، دار المعرفة، الاسكندرية، 1989م.
- العبدلي، أحمد فضل، هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن، بيروت، 1980م
- علي باشا مبارك، الخطط التوفيقية، ج14، هيئة الكتاب، 2008م.
- فهبي، نعيم زكي، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بالشرق والغرب أواخر العصور الوسطى، مصر، 1973م.
- الكبسي، محمد بن إسماعيل، اللطائف السنوية في أخبار الممالك اليمنية، الجيل الجيد، صنعاء، الطبعة الأولى، 2005م.
- ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ترجمة: عبد العزيز جاويد، الهيئة المصرية العامة لكتاب، القاهرة، 1996م.
- المحضي، إبراهيم أحمد: معجم المدن والقائل اليمنية، دار الكلمة، صنعاء، طبعة 1985م.
- الوزان، الحسن، وصف إفريقيا، تحقيق: عبد الرحمن حميدة، هيئة الكتاب، 2005م.

الدوريات:

- إسماعيل، أحمد علي، طرق الحج، دراسة جغرافية، ندوة طرق الحج: جسور للتواصل بين الشعوب، أعمال ندوة طرق الحج، القاهرة 14-16 ربيع الآخر 1423هـ/ 25-27 حزيران، 2002م، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة- إيسيسكو، 1428هـ/2007م، صفحات (98-125)،
- إمام، محمد كمال الدين ، طرق الحج وقوافله في التاريخ الثقافي، ندوة طرق الحج: جسور للتواصل بين الشعوب، أعمال ندوة طرق الحج، القاهرة 14-16 ربيع الآخر 1423هـ/ 25-27 حزيران، 2002م، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة- إيسيسكو، 1428هـ/2007م. صفحات (361-374).
- باشا، عبد المقصود، الجانب التاريخي لطرق الحج، ندوة طرق الحج: جسور للتواصل بين الشعوب، أعمال ندوة طرق الحج، القاهرة 14-16 ربيع الآخر 1423هـ/ 25-27 حزيران، 2002م، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة- إيسيسكو، 1428هـ/2007م، صفحات (125-143).
- الثنيان، محمد عبد الرحمن، طريق الحج اليمني الأعلى (النجدي) بين صنعاء ومكة المكرمة، ضمن موسوعة طرق التجارة القديمة، روائع آثار المملكة العربية السعودية، متحف اللوفر، باريس، الهيئة العامة للسياحة والآثار، الرياض، طبع في إيطاليا، (المجموعة الأوروبية)، 14 يوليو- 27 سبتمبر، 2010م، صفحات (469-477).
- جوليان لوازو، الجزيرة العربية والمدن المقدسة في القرون الوسطى، ، ضمن موسوعة طرق التجارة القديمة، آثار المملكة العربية السعودية، متحف اللوفر، باريس، الهيئة العامة للسياحة والآثار، الرياض، 14 يوليو- 27 سبتمبر، 2010م، صفحات (397-409).
- جوليان لوازو، الجزيرة العربية والمدن المقدسة في القرون الوسطى، ضمن موسوعة طرق التجارة القديمة، روائع آثار المملكة العربية السعودية، متحف اللوفر، باريس، الهيئة العامة للسياحة والآثار، الرياض، 14 يوليو- 27 سبتمبر، 2010م، صفحات(397-408).
- دراج، أحمد، عيذاب من الثغور العربية المندثرة، المؤرخ العربي، عدد8، بغداد، 1974م.
- السروري، محمد عبده، أهمية موقع عدن في النشاط التجاري البحري الدولي في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، ندوة عدن بوابة اليمن الحضارية، جامعة عدن، 18-19 يناير، 2011م، صفحات (357-388).

- عطية، تاريخ ميناء باضع في القرون الخمسة الأولى للإسلام، مجلة الدراسات الإفريقية، العدد الحادي عشر، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، ١٩٨٢م.
- عوض، عبد العزيز، الاحتلال البرتغالي لموانئ الجزيرة العربية، مجلة المؤرخ العربي، بغداد، 1986م
- الغثيان، علي بن إبراهيم ، طريق الحج المصري، موسوعة طرق التجارة القديمة، روائع آثار المملكة العربية السعودية، تحف اللوفر، باريس، الهيئة العامة للسياحة والآثار، الرياض، 14 يوليو- 27 سبتمبر، 2010م ، صفحات(466-461).
- فرانسواز ديمانج، قوافل البخور، ، ضمن موسوعة طرق التجارة القديمة، روائع آثار المملكة العربية السعودية، متحف اللوفر، باريس، الهيئة العامة للسياحة والآثار، الرياض، 14 يوليو- 27 سبتمبر، 2010م، صفحات 123-125.
- القوصي، عطية، عيذاب جدة طريق الحج المصري على البحر الأحمر في العصور الوسطى، ندوة طرق الحج: جسور للتواصل بين الشعوب، أعمال ندوة طرق الحج، القاهرة 14-16 ربيع الآخر 1423هـ / 25-27 حزيران، 2002م، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة- إيسيسكو، 1428هـ/2007م. ، ص (311-340).
- الكامل، محمد أحمد، معالم ومظاهر حركة النشاط التجاري في عدن خلال عهد السلطان المظفر الرسولي، ندوة عدن بوابة اليمن الحضارية، جامعة عدن، 18-19 يناير، 2011م، صفحات(317-332)
- مسعد، مصطفى، البجة والعرب، مجلة كلية الآداب، ، جامعة القاهرة، العدد ٢١ ، المجلد الثاني، ديسمبر 1959م.

الرسائل

- العبادي، عبد الله قائد، الحياة العلمية في مدينة زيد في عهد الدولة الرسولية، 626-858هـ/1228-1454م، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القرى، 1416هـ/1995م.
- علي، علي حسين: الحياة العلمية في مدينة تعز وأعمالها في عصر بني رسول، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القرى، 1414هـ/1994م،

القواميس:

- القاموس السياسي، دار النهضة العربية، 1968،

المراجع المعربة:

- جونتائين، س.د. دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية، تعريب وتحقيق: عطية القوصي، وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة الأولى، 1980م.
- ريتشارد مورتيل، الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي، الرياض، 1985م.
- سبنسر تريمجهام، الإسلام في السودان، ترجمة فؤاد محمد عكود، المشروع القومي للترجمة (٢٣٤)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2001م.

المراجع الأجنبية:

- 1- D.K.Daeg de Mott, YEMENIS, Worldmark Encyclopedia of Cultures And Daily Life, Asia and Oceania,Drtrout,Now York, Toronto,London, Volume 3,1997..

- 2- George E.Kirk, A short History of Middle East, (London, 1964.-
- 3- Werner Daum, From Adan to India and Cairo Jewish World in the 11 th and 12 th Centuries, Yemen 3000 Years of Art and Civilisation in Arabia Felix, at The Staatilches Musesm Fur Volkerkunde Munchen (25 April 1987 to 5 April 1988), published by Pinguin-verlag, Innsbruck Umschau-Verlag, Frankfurt/main, PP.167-173.

Abstract: The research aims at investigating the important role of Tahirian Sultans in the commercial activity in Aden during the Tahirian era. The commercial activity in Aden port was with Indian trade, the Red Sea, Hijaz, and Egypt. They could subjugate the two dangerous oppositions at that time, troops and tribes, because of their political and commercial experience.

Then they practiced trade and benefited from their profits for a period of more than sixty years (1451 -1517 AD), or (858-923 AH). To achieve the objectives of this study, the researcher adopted the experimental and historical approaches to get the scientific materials related to this subject.

The researcher concluded to the following findings:

-The Tahirian Sultans tried hard to subjugate the troops and tribes due to their political and commercial experiences .

They maintained the commercial activity of Aden port for their flexibility in dealing with the Mamluk Sultans in Egypt, their rivals who later attacked Aden and eliminated the Tahirians and ruled the whole country, Yemen .

Keywords: commercial activity - Aden - era - Tahirian
